جامـــعة آل البيت
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

الخليفة العباسي الناصر لدين الله العباسي وسياسته من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة

(575–622هـ/1180–1225م)

The Abbasi caliph Annaser ledin Allah، and his policy according to historical sources and modern studies.

(1180-1225)A.D/575-622A.H)

إعداد الطالب
عبدالله معيض محمد العجمي
1570303004

إشراف
أ.د. محمد صياح العيسى

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة آل البيت

الفصل الدراسي الصيفي

2017م

التفويض

أنا الطالب: عبدالله معيض محمد العجمي؛ أفوض جامعة آل البيت بتزويد نسخ من رسالتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبها.

الاسم: عبدالله معيض محمد العجمي

التوقيع: ....

التاريخ: 9 / 8 / 2017م.

ب

إقرار والتزام

أنا الطالب: عبدالله معيض محمد العجمي   الرقم الجامعي: 1570303004

التخصص: ماجستير تاريخ.   كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أقرُّ بأنني قد التزمتُ بقوانين جامعة آل البيت وأنظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية المفعول، والمتعلقة بإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه، إذ أن قمت شخصيًّا بإعداد رسالتي الموسومة بـــ:

الخليفة العباسي الناصر لدين الله العباسي وسياسته من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة

(575-622هـ/1180-1225م)

The Abbasi caliph Annaser ledin Allah, and his policy .according to historical sources and modern studies

A.D/575-622A.H)1225-1180)

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الرسائل والأطاريح العلمية، كما أنني أعلم بأن رسالتي هذه غير منقولة أو مستله من رسائل أو كتب أو أبحاث أو أية منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أي وسيلة إعلامية، وتأسيساً على ما تقدم، فإنني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير ذلك، بما فيه حق مجلس العمداء في جامعة آل البيت بإلغاء قرار منحي الدرجة العلمية التي حصلت عليها، وسحب شهادة التخرج مني بعد صدورها، دون أن يكون لي أي حق في التظلم أو الاعتراض أو الطعن بأي صورة كانت في القرار الصادر عن مجلس العمداء بهذا الصدد.

توقيـــع الطالب: ....

التـــاريـــخ: 9/ 8/ 2017 م.

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة وعنوانها :

الخليفة العباسي الناصر لدين الله العباسي وسياسته من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة
(575-622هـ /1180 -1225 م)

The Abbasi caliph Annaser ledin Allah, and his policy according to historical sources and modern studies

(575-622 A.H/1180- 1225A.D)

واجيزت بتاريخ : / /2017 م.

إعداد

عبد الله معيض محمد العجمي

إشراف

أ.د محمد صياح العيسى

أعضاء لجنة المناقشة :		التوقيع
الاستاذ الدكتور . محمد صياح العيسى	مشرفا ورئيسا	....
الدكتور . انور الخالدي	عضوا	....
الدكتور. موسى بني خالد	عضوا	....
الدكتور . محمد العناقرة	عضوا خارجيا	....

ب

الإهداء

إلى كل من ساندني ودعمني

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر ووافر الامتنان إلى الدكتور محمد صياح العيسى الفاضل المشرف علـــى هذه الرسالة، وكان لملاحظاته وإرشاداته الطيبة الأثرّ الأكبر في إتمام هذا الجهد الأكاديمي، فلـــه مني كل الشكر والتقدير والعرفان، متمنياً من المولى عزّ وجل أن يزيده علماً ورفعة، وأن يجزاه عني خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الأفاضل لتكرمهم بقبول مناقشة هذه الرسالة والذي زادني وإياها بهم شرفٌ ورفعة لما بذلوه من جهد ووقت في قراءتهـــا ووضع ملاحظاتهم السديدة وإضاءاتهم النيّرة التي أثــرّت هــذه الدراســـة، كـــل مـــن حضـــرة الدكتورأنور الخالدي الدكتور موسى الخالدي، والدكتور محمد العناقرة.

كما أتقدم بشكري وعظيم امتناني إلى الذين نهلت من علمهم وتتلمذت على أيـــديهم والـــذين غمروني بما لديهم من علم ومعرفة؛ أساتذتي الأكارم في كلية الآداب والعلـــوم الإنســـانية فـــي "جامعة آل البيت".

الباحث

فهرس المحتويات

ملخص

تعتبر فترة خلافة الناصر عند المؤرخين المحدثين هي فترة الصحوة قبل الموت، وكـــان يقصد بذلك أن الخلافة مرّت بفترة انتعاش، وأن الدولة العباسية ازدهرت على جميـــع الأصـــعدة وكافة المجالات.

عرف عن الخليفة الناصر أنه في عهده تخلصت الخلافة والعراق من السيطرة السلجوقية ولم يعد هناك تعديات مهينة ولا غير ذلك، وعرف عنه أيضاً أنه جاء للخلافـــة ووجـــد أمامـــه تنظيمات اجتماعية شعبية ومن الصعب بل من المستحيل عليه حل هذه التنظيمات، فنصّب نفســـه كبيراً للفتيان بمساعدة الشيخ عبد الجبار، وأصبحت الفتوة مؤسسة رسمية لها تقاليد منظمة رأسها الخليفة الحاكم، وزاد على ذلك بأن أخضع أمراء الأطراف للفتوة وبعث إليهم بذلك.

وعليه تأتي هذه الدراسة لتدرس هذه المرحلة بدءاً من الخليفة وصورته فـــي المصـــادر والمراجع، ثم تذهب الدراسة لتدرس علاقات الدولة العباسية زمن الخليفـــة الناصـــر، والحيـــاة الاقتصادية بكل مجالاتها، معتمدةً في ذلك على ما توفر من المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: الخليفة الناصر، الخلافة العباسية، الفتوة.

الاختصارات المستخدمة

أشير إلى المصادر والمراجع في الهوامش على النحو الآتي:

ترمز الحروف الآتية إلى ما يلي:

ت	الوفاة
هـ	الهجري
م	الميلادي
ق	القرن
ط	الطبعة
ج	الجزء
ص	الصفحة
د. ط	دون طبعة
د. ت	دون تاريخ نشر
د. ن	دون دار نشر
ع	العدد بالنسبة للدوريات
P.	رقم الصفحة بالانجليزي
vol.	رقم الجزء بالانجليزي

مقدمة:

يتميز العصر الذي شغله الخليفة الناصر بانتعاش الدولة العباسية، بعد زمن طويل من التفكك والانحلال والانقسامات الداخلية، وذلك جرّاء ما مرّ سابقاً على الدولة العباسية من سيطرة الأتراك، ثم البويهيين ثم السلاجقة، وما تبع ذلك من انهيار معنوي لمؤسسة الخلافة، فلم يعد الخليفة كما كان في السابق، فهو واجهة تملك ضياعاً واقطاعات ولكنها لا تحكم مطلقاً، بل على العكس تماماً أصبح منصب الخلافة يُعبّأ من قبل القوى العسكرية المسيطرة سواء بويهيين أم سلاجقة.

ولقد استطاع الخليفة العباسي الناصر لدين الله أن يظل خليفة للمسلمين نحواً من سبعة وأربعين عاماً، وذلك في وقت تناقصت فيه مدد حكم الخلفاء بعده وقبله، ويرجع السبب في ذلك إلى شخصيته التي امتازت بخصائص كفلت له اتباع أساليب معينة في السياسة والحكم من نوع آخر غير الذي سار عليه آباؤه وأجداده، وهذا أعاد له زمام القيادة والحكم مجدداً لفترة طويلة نسبياً من الزمان، وقد وصف بعض المؤرخين المحدثين هذه الفترة بأنها فترة الانتعاش الأخير قبل الموت.

وفي هذا الفترة تأخذ العلاقات مع دول الجوار طابعاً جديداً، فهناك علاقات مع الأيوبيين في مصر والشام، وعلاقات مع أتابكة الجزيرة والموصل، وعلاقات مع شاهات خوارزم في المشرق الإسلامي، وهي بمجملها علاقات كان لها تأثير بالغ في سياسة الدولة العباسية.

وحين يكون الحديث عن الخلافة العباسية والخليفة الناصر لا يمكن تجاهل أكبر المخاطر التي بدأت تطرق باب الخلافة العباسية من الشرق وهم المغول، وهم ذاتهم الذين سيسقطون الخلافة العباسية في بغداد في موجة من أشد موجات الفتك والتدمير التي عرفها تاريخ العصر الوسيط.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الفترة وأقصد هنا القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين قد تميزت بازدهار الحضارة فيها، فتقدمت النظم المالية فاهتم خليفة بغداد وأمراء الدويلات المستقلة بالمشرق بزيادة موارد الدولة المالية، وتنظيم أوجه الإنفاق فيها، فقد أدركوا أن تعزيز دولهم لا يتحقق إلا بتنمية موارد الثروة في دولهم وكياناتهم السياسية، وتحقيق الرخاء لرعيتهم، وتوفير سبل الأمن والاستقرار فيها، لذا فإنهم اعتنوا بأمور الزراعة وعملوا على إكثار المحاصيل فيها، ونظّموا وسائل الري في أرجاء دولهم.

ويرتبط بذلك انتعاش التجارة الداخلية، فقد نشطت حركة التبادل التجاري بين مدن العراق ومدن المشرق الإسلامي، بسبب إنشاء الطرق وتأمينها، الأمر الذي سهّل نقل البضائع بين بلدان الخلافة العباسية وغيرها من المناطق الأخرى.

وحين تنشط الزراعة والاقتصاد فإن ذلك سيرافقه حركة علمية وأدبية، فقد ازدهرت هذه العلوم في بلاد العراق والمشرق الإسلامي، فاهتم كثير من الفقهاء والعلماء بالاشتغال بالعلوم الدينية واللسانية من قراءات وتفسير وحديث وفقه ونحو ولغة، كما نبغ عدد آخر من العلماء بالعلوم التجريبية والكونية، وحفلت دار الخلافة العباسية وبلاط أمراء بلاد المشرق الإسلامي بنخبة من مميزة من العلماء.

أما بالنسبة للخطة التي سرت عليها في الدراسة فقد تمثلت بتقسيم الدراسة إلى خمسة فصول، الفصل الأول فكان مخصّصاً للخليفة الناصر لدين الله، ودرسنا فيه حياته وشخصيته، وسياسته في البلاط وسياسته مع المعارضة، أما الفصل الثاني فكان بعنوان الخليفة الناصر لدين الله في المصادر التاريخية، وحاولنا أن نستجلي الصورة التي تبدو متناقضة في المصادر والمراجع في كثير من الأحيان بين مدح وذم، ثم يأتي الفصل الثالث ليدرس علاقات الخليفة

الناصر لدين الله مع الدول والإمارات المستقلة، وكانت أهم الأطراف التي تستحق الدراسة هي ثلاثة أطراف الخوارزميين والأتابكة والأيوبيين، ثم بعد ذلك يكون الفصل الرابع تحت عنـــوان سياسة الخليفة الناصر لدين الله في المجتمع من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثـــة، ليدرس أربعة عناوين وهي طبقات المجتمع والأعياد والمواسم ومجـــالس الخليفـــة الناصـــر والمرافق الاجتماعية، وأخيراً يأتي الفصل الخامس ليدرس الحياة الاقتصادية وسياسة الخليفـــة الناصر، وأهم مجالات الحياة الاقتصادية هي الزراعة والصناعة والتجـــارة والاقطـــاع، أمـــا الخاتمة فقد أوجزت فيها النتائج التي توصلت إليها الدراسة، كما احتوت الدراسة علـــى قائمـــة بالمصادر المطبوعة، والمراجع والبحوث العربية والأجنبية التي أسهمت في مجموعها في بناء هيكل البحث وما توصل إليه من نتائج.

دراسة تحليلية نقدية لأهم مصادر البحث

اعتمدت هذه الدراسة على مجموعة مختلفة من المصادر التي تشكل مادتها ركناً أساسياً في هذه الدراسة، وسيكون التركيز هنا على قيمة كل مصدر من المصادر بمقدار ما أفادنا ذلك المصدر وما قدّم من معلومات عن الناصر والخلافة العباسية، وسأعرض هذه المصادر ضمن مجموعات.

1- **كتب التاريخ**، وهي العماد الرئيس الذي عليه تبنى هذه الدراسة، ومن أهمها كتاب ذيل الروضتين لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي (ت665هـ/1267م) وهو كتاب ذيّل به على كتابه السابق " عيون الروضتين في أخبار الدولتين"، من أوسع الكتب التي أرخت لفترة أواخر القرن السادس وبداية السابع الهجري، ومع أن جلّ اهتمامه كان منصبّاً على الأيوبيين وصراعاتهم الداخلية، وحروبهم الخارجية مع الصليبيين، إلا أنه أعطى معلومات هامة عن الخليفة الناصر، ويتميز هذا الكتاب بأنه قريب زمنياً من فترة الدراسة، ومن كتب التاريخ أيضاً كتاب مضمار الحقائق وسر الخلائق، لمحمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه الأيوبي (ت617 هـ /1221م) وهو من أهم مصادر الدراسة بدأ كتابه سنة 575ه/1180م وهي السنة التي اعتلى فيها الناصر الحكم، كان معاصراً للأحداث وقريباً منها، ومطّلعاً على الوثائق وما يجري في الدول والإمارات بحكم أنه كان أميراً على منطقة حماه، وتناول أحداث سياسية كثيرة في العراق والشام ومصر، ولم تقتصر إفادة هذا الكتاب على فصل معيّن، بل كان مفيداً في معظم فصول الرسالة، وأيضاً كتاب الكامل في التاريخ لعلي بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير (ت630 هـ /1233م)، وهذا الكتاب من أهم مصادر التاريخ السياسي، وهو يشابه في منهجه كتاب الطبري " تاريخ الرسل والملوك"، أفادنا في كل المواضع ولكن بدت أهميته

في الفصل الثالث " علاقات الخليفة الناصر لدين الله مع الـــدول والإمـــارات المســـتقلة"، وكذلك كتاب راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية لمحمد بن علي بـــن سليمان الراوندي (ت599 هــ /1203م)، وكما يبدو من عنوان الكتـــاب أنـــه مخـــتص بتاريخ الدولة السلجوقية، وقد أفادنا أيضاً في الفصل الثالث " علاقات الخليفة الناصر لدين الله مع الدول والإمارات المستقلة"، وكتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ليوســـف بـــن قزأوغلي المشهور بسبط بن الجوزي (ت654 هــ /1256م)، أفادنا فـــي الفصـــل الأول عندما تطرقنا لحياة الناصر وسياسته في البلاط وسياسته مع المعارضة، وكان معاصـــراً لأغلب الأحداث التي ذكرها، وكتاب المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لجمال الـــدين أبـــو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت597 هــ /1201م) جمع فيه بين الحوادث والتـــراجم على النحو الذي أصبح متبعاً من بعده، إضافةً إلـــى مســـرد الأحـــداث المرتـــب حســـب السنوات، أفادنا في التمهيد للمرحلة التي سبقت مجيء الخليفة الناصر.

2- **كتب الأدب**، وأهمها كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لأبي العباس أحمد بن علـــي المعروف بالقلقشندي (ت821 هــ /1418م) نشأ وناب في الحكم وتوفي فـــي القـــاهرة، وهو من دار علم، وفي أبنائه وأجداده علماء أجلاء، أفادنا في ذكر الكنى والألقـــاب التـــي كانت تمنح لموظفي ديوان الخلافة العباسية، كما أنه أفادنا في الحديث عن الإقطـــاع فـــي الفصـــل الخـــامس، وكتـــاب الفخـــري فـــي الآداب الســـلطانية لابـــن الطقطقـــي (ت709 هــ /1309م) كان مفيداً بشكل قليل، وبالتحديد في الفصل الأول عند الحـــديث عن سياسة الخليفة الناصر في البلاط، ومن المعروف أن هذا الكتاب يصنّف ضـــمن مـــا يسمى كتب السياسة الشرعية، كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب

المعروف بالجاحظ، وهو كتاب أدب ولكن اعتمدنا عليه عند الحديث عن التجارات والسلع التي تم تبادلها بين بغداد وغيرها من الأقاليم.

3- **كتب السير والتراجم** وبطبيعة الحال هي مصدر معلومات لسيرة الأعلام ومن أهمها كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأحمد بن محمد بن خلكان (ت681 هـ /1282م) وهو **من** كتب التراجم المهمة، وفيه معلومات هائلة عن الفقهاء والأدباء والوعاظ والمتصوفة وأهل الحكم، وتعد تلك التراجم من أوسع التراجم وأكثرها فائدة بين الكتب التي ترجمت لهؤلاء، وكتاب فوات الوفيات لمحمد بن شاكر بن أحمد (ت764 هـ /1363م) وهو كتاب مستدرك على كتاب ابن خلكان وفيات الأعيان المذكور آنفاً، ويمتاز بالاعتماد على مؤلفات معاصريه من مؤلفي الموسوعات، وكتاب الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت764 هـ /1363م) من أجل مؤلفات الصلاح الصفدي، وأوفى الكتب المؤلفة في الإسلام في تراجم الرجال، وضعه الصفدي في ثلاثين مجلداً، اعتمدنا على هذه المصادر في التعريف بالشخصيات والأعلام الواردين في هذه الرسالة.

4- **كتب المعاجم الجغرافية** مثل كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي (ت626هـ/1229م)، وهو كتاب مختص للتعريف بالأماكن الجغرافية، وأفادنا في التعريف بالمدن وتحديد مواقعها، ولكن ما ميّز كتاب معجم البلدان في هذه الرسالة أنه كان مصدراً مهماً عن الزراعة والصناعة والتجارة في العراق في العهد العباسي، فهو يذكر كل بلدة وبما تشتهر به من مزروعات وسلع، وكان المصدر المهم في الفصل الخامس، وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لأبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (ت380 هـ /990م)، كان رديفاً ومكملاً لمعجم البلدان في التعريف بالأماكن وتحديد مواقعها.

5- **كتب المعاجم اللغوية** مثل كتاب لسان العرب لمحمد بن مكرم المعروف بابن منظور (ت711 هـ /1311م) وكتاب تاج العروس لمحمد بن عبد الرزاق الزبيدي (ت1205 هـ /1790م) وكتاب القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب للفيروز آبادي (ت817 هـ /1414م) وكتاب المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرون وهو من الكتب الحديثة.

6- **المراجع الحديثة** التي اختصت بالحديث عن العراق والناصر ومن أهمها كتاب عودة الروح للخلافة الإسلامية، لمحمد صالح محي الدين محمد، وهو من أفضل الكتب التي تناولت الخليفة الناصر، وأستطيع القول أنه المرجع الرئيس الذي اعتمدت عليه في هذه الدراسة، ومع أن الكتاب كان شاملاً وافياً، إلا أنني استطعت أن أضيف بعض المعلومات وأطرق بعض الجوانب التي لم يذكرها، وقد بدأ كتابه بتمهيد عرض فيه للأحوال الداخلية للعراق قبيل تولية الناصر للخلافة، وركز اهتمامه على إبراز جهود كل من الخليفتين المسترشد والراشد في استعادة سلطة الخلافة وتأكيد سلطانها الزمني جنباً إلى جنب مع سلطانها الديني، واعتمد المؤلف على مجموعة من المصادر المعاصرة لهذه الفترة، كما أنه اعتمد على المخطوطات ذات القيمة الكبيرة، مثل مخطوطة ذيل على ذيل تاريخ بغداد للسمعاني (ت562 هـ /1167م) التي وضعها جمال الدين محمد بن سعيد بن يحيى المعروف بابن الدبيثي (ت637 هـ /1239م) .

كتاب دراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدوري، وكتاب بغداد مدينة السلام لكوك ريجارد، وأيضاً كتاب الدولة الخوارزمية والمغول" غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية" لحافظ أحمد حمدي، وكل هذه المراجع كانت مهمة ومفيدة في كل فصول الرسالة.

التمهيد

الخلافة العباسية في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي

لمحة سياسية:

عندما يكون الحديث عن القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي فإن أهم شيء يجذب الانتباه في هذا القرن هو المحاولات المضنية التي عملها الخلفاء للتخلص من السيطرة والنفوذ السلجوقي، فمنذ أن تولى المسترشد الخلافة سنة 512 هـ /1118م نجد أنه بعث روحاً جديدة للخلافة، وكان أول ما بدأ به هو محاولة تكوين جيش خاص بالخلافة[1]، بشكل مستقل عن الجيش السلجوقي، وكان المسترشد شهماً شجاعاً ذا همة ومعرفة وعقل، وكان مشتغلاً بالعبادة، سالكاً في الخلافة سيرة القادر، قرأ القرآن وسمع الحديث وقال الشعر، ومن شعره: (على الطويل)

أنا الأشقر الموعود بي في الملاحم ... ومن يملك الدنيا بغير مزاحم [2]

وقد أشاد به ابن الأثير فقال: " تمكن من الخلافة تمكناً عظيماً لم ير أحد ما تقدم من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلا أن يكون المعتضد بالله والمكتفي ، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة واجتمعت عليه العساكر وقاد الجيوش وباشر الحروب.....[3]، ورأى المسترشد أن يصلح الأمور في العراق قبل أن يتفرّغ للسلاجقة، وقد كان دبيس بن صدقة المزيدي عاث فساداً في الفرات الأوسط وهدّد المدن والقرى والقوافل التجارية، فعزم

(1) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت630هـ/1232م)، الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1963 ص50.

(2) الكتبي، محمد بن شاكر (764 هـ /1362م) فوات الوفيات، ط1، ج3، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1973 ص181.

(3) ابن الأثير، الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، ص50.

الخليفة على وضع حد لتجاوزاته، وكانت هذه الحادثة ليتأكد من وقوف الناس معه واستعدادهم للقتال دونه[1]، " فأمر الخليفة فنودي ببغداد: لا يتخلف من الأجناد أحد، ومن أحب الجندية من العامة فليحضر، فجاء خلق كثير، ففرق فيهم الأموال والسلاح"[2]، ويتابع ابن الأثير فيقول: " فنادى أهل بغداذ: النفير النفير، الغزاة الغزاة! وكثر الضجيج من الناس، وخرج منهم عالم كثير لا يحصون كثرة"[3]، وهنا يتبين أن هناك فئات كثيرة شاركت مع المسترشد، وكانت النتيجة أن انهزم عسكر دبيس وحملت الأسرى إلى بين يديه أمر الخليفة أن تضرب أعناقهم صبراً، ولم يقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين فارساً[4]، وكأن هذا النصر كان تمهيداً للنصر الذي تحقق سنة 519 هـ /1125م على طغرل بن محمد السلجوقي، الذي حاول بقواته وقوات دبيس المزيدي غزو بغداد فقتل.

ورغم محاولة الخليفة ضرب الأطراف ببعضها إلا إنه لم ينجح في ذلك، فقد اتفق السلطان سنجر مع السلطان محمود على محاربة الخليفة[5]، وجاؤوا قاصدين الحرب، فكانت مقاومة أهل بغداد عنيدة ضد السلاجقة، ومما زاد في صلابتهم أن الخليفة المسترشد كان يقود المعركة بنفسه، وكان العامة وسواد الناس يقاتلون بجانب الخليفة، وكانوا يشتمون السلطان السلجوقي ويقولون : " يا باطني تترك الفرنج والروم وتقاتل الخليفة"[6]، وقد استمر القتال وظل المسترشد يدافع عن بغداد حتى اضطر السلطان السلجوقي إلى الانسحاب، واتفق

(1) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت630هـ/1232م) الكامل في التاريخ، ج8، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1997 ص651.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص683.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص683.
(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص684.
(5) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597 هـ /1200م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، ج17، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت 1992 ص231.
(6) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774ه/1372م) البداية والنهاية، ط1، ج12، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1988 ص244.

الطرفان على الصلح والموادعة، " ووقع الصلح والتحليف، ودخل جيش السلطان وهم في غاية الجهد من قلة الطعام عندهم في العسكر...... وظهر من السلطان حلم كثير عن العوام، وأمر الخليفة برد ما نهب من دور الجند"[1]، وعلى ما يبدو أن هذا الصلح كان تحضيراً لمرحلة جديدة، فكلا الطرفين أخذ يستعد لجولة قادمة ومما زاد في قوة الخلافة أن أمراء السلاجقة أخذوا يتنافسون فيما بينهم.

وتعتبر سنة 525 هـ /1131م سنة ذات علامة فارقة في تاريخ الخلافة، ففيها توفي السلطان محمود، واشتدت حدة المنازعات بين أمراء السلاجقة، فعملت الخلافة على إضعافهم وإضعاف أعوانهم من ملوك الأطراف مثل عماد الدين زنكي وكذلك دبيس بن صدقة[2]، ونجح المسترشد في تأديب عماد الدين في الموصل، والتجأ إليه دبيس طالباً العفو، ولا شك أن الخلافة قد سيطرت سيطرة تامة على العراق، وهذا ما يؤكده ابن العمراني بقوله:" واستولى المسترشد باللّٰه على جميع ما كان للأتراك بالعراق وأقطعها، ونفذ إقبال خادمه المعروف بجمال الدولة إلى الحلة وأمّره على بلاد بابل وضم إليه عشرة آلاف فارس من العرب والترك والأكراد وطوّقه وسوّره ولقّبه حسام الدين، سلطان الأمراء ملك العرب، وجاء إلى طاعته صاحب فارس وجاءته العساكر من الشام وديار ربيعة، وانضم إليه من التركمان والأعراب والأكراد خلق لا يحصى، ووقعت الهيبة في قلوب الملوك"[3].

وكان المسترشد ينتهز أي مناسبة من شأنها أن تعزز روح الثقة بالنفس، ويستغل الفرص والمناسبات لإظهار قوته، وإحياء التقاليد العسكرية بين الناس، وكان يأمر بالقيام

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ط1، ج12، ص244.

(2) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج17، ص263-264. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص29.

(3) ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت580 هـ /1185م) الإنباء في تاريخ الخلفاء، ط1، تحقيق قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة 2001 ص217.

بالاستعراضات العسكرية ليشهد الجميع قوة الخلافة، فقد بلغ الجيش في استعراض سنة 528 هـ /1134م خمسة عشر ألفاً من الفرسان[1].

إن هذه الاستعدادات لم تكن لتحصل لولا أن الخليفة كان يتنبّأ بوقوع الحرب، وفعلاً وقعت الحرب، وكان اعتماد الخليفة على جيشه الصغير وعلى أمراء الأقاليم من السلاجقة، ولكن هؤلاء خانوا العهد وانضمّوا إلى مسعود، وظلّ الخليفة في ساحة المعركة حتى أُسر مع أصحابه[2].

ثم حصل اتفاق سري بين الطرفين بين سنجر ومسعود لاغتيال المسترشد واتهام الباطنية بذلك، فبعد أن تظاهر مسعود باتفاقه مع الخليفة على العودة إلى بغداد مقابل تعهد الخليفة بعدم تنظيم جيش جديد، وتم ما خُطّط له فاغتيل الخليفة في مراغة بأذربيجان سنة 529 هـ /1135م بتدبير من السلاجقة[3].

ثم بعد ذلك تولى الراشد الخلافة وكان شبيهاً لوالده المسترشد في قوة شخصيته، ومحاولته التقرّب من الرعية ولذلك يمكن أن تعتبر خلافته التي قاربت السنة امتداداً لمناهضة السلاجقة التي قادها أبوه المسترشد من قبل[4]، وليتمكّن السلطان السلجوقي من حكم العراق وعدم إتاحة الفرصة للراشد لممارسة صلاحيات الخليفة، قام بمنعه من بناء قوات عسكرية مرة ثانية، لذا منع عنه الأموال لكي لا يستخدمها في بناء الجيش، وزاد على ذلك أن طالب الخليفة بأموال جديدة[5].

---

(1) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت748 هـ /1347م) العبر في خبر من غبر، ج2، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت 2000 ص432.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص62-63.

(3) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط2، ج5، دار الكتب والوثائق القومية، مصر 2005 ص257.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ط1، ج12، ص257.

(5) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج17، ص307.

ثم قرّر الراشد الاعتماد على المقاتلة من أهل بغداد حيث اعتمد عليها في طرد القوات السلجوقية من بغداد والتي لم تصمد أمام الهجوم وانحدرت إلى واسط، وانضم إلى الراشد العديد من الأمراء، حين سمعوا بطرد القوات السلجوقية من بغداد[1]، ولكن تغيّرت الأمور بعد ذلك حيث تمت محاصرة بغداد لأكثر من خمسين يوماً، وزادت إمدادات السلاجقة، فانسحب الراشد نحو الموصل، ليجنّب بغداد مضار الحرب، فدخلها مسعود دون قتال، عندها قرّر السلاجقة عزل الخليفة مبرّرين ذلك بتهم ألصقت به، مثل شرب الخمور وارتكاب الفسق والفجور وكان ذلك سنة 530 هـ /1136م، ولكن الراشد لم يقطع الأمل مطلقاً، فقد تجوّل في الأقاليم يجنّد الجنود ويتحالف مع الأمراء، ومع أنه انتصر على مسعود سنة 532 هـ /1138م إلا أن مسعود كان يوفّق كل مرة في إبعاد الأمراء عن الخليفة بالترغيب وبالتهديد، ولما لم ييأس الخليفة المخلوع من أمله باستعادة الخلافة فإن مسعود قد أرسل إليه من اغتاله في أصفهان في صفر من سنة 532 هـ /1138م[2].

ثم اختار السلاجقة المقتفي لأمر الله خليفةً للمسلمين وظنوا أنه الاختيار الأنسب، " بايعوه على أن لا يكون عنده خيل ولا آلة سفر وأخذوا جواري خادمات وغلمان، وكان ابن الداريج ينوب عن العميد، فضمن أطيان سلاحية الخليفة بمائة ألف دينار"[3]، لهم فكانت النتيجة عكسية، فقد أظهر مقدرة عسكرية فائقة وحرص بالغ على إدارة الأمور، يقول الصفدي عنه: " كان من سروات الخلفاء عالماً ديناً شجاعاً حليماً دمث الأخلاق كامل السؤدد قليل المثل في الخلفاء لا يجري في دولته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه وكتب في خلافته بخطه ثلث ربعات..."

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص71.

(2) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج17، ص311.

(3) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج17، ص314.

[1]، ويقول الرحالة بن يامين التطيلي : " كان من أعظم خلفاء بني العباس، إذ إنه قضى على نفوذ السلاجقة وأعاد للخلافة عزها وسؤددها ونفوذها السياسي إلى جانب نفوذها الديني"[2]، لقد كان النفوذ الديني هو السلاح القوي بيد الخلافة، فحين اختلف مع السلطان مسعود أمر بغلق المساجد ثلاثة أيام مما أجبر السلطان على الاستجابة لمطالب الخليفة، وحين طالبه مسعود بالأموال رفض ذلك قائلاً : " ما رأينا أعجب من أمرك أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى وعاد أصحابه عراة، وولى الراشد ففعل ما فعل ثم رحل وأخذ ما بقي من الأموال ولم يبق في الدار سوى الأثاث فأخذته جميعه وتصرفت في دار الضرب ودار الذهب، وأخذت التركات والجوالي فمن أي وجه نقيم لك هذا المال؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها، فإني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ من المسلمين حبة واحدة ظلماً....." [3].

واتخذ الخليفة مجموعة من الاجراءات يطول شرحها في هذا المقام، ولكن فحواها يدل دلالةً واضحة على رفض التسلط السلجوقي، وإعادة بعث قوة الخلافة من جديد، وإن هذه التصرفات لم تعجب السلطان محمد السلجوقي لذلك بدأ من سنة 549 هـ /1154م للهجوم على الخلافة واحتلال بغداد، كما وأنه بدأ يحرّض أعوانه من الأمراء التابعين له لتنفيذ خطته، واتجه جيش محمد السلجوقي نحو العراق، واتخذ الخليفة عدة خطوات من أهمها قطع الجسر، وضرب المناطق التي تمركز فيها السلاجقة من قبل أهل الكرخ وأهل باب البصرة، فانسحب الجند وكسب المهاجمون أموالاً ومعدات سلجوقية، يقول ابن الجوزي: " ووقع النفير ببغداد ولم

---

(1) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764 هـ /1362م) الوافي بالوفيات، ج2، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000 ص68.

(2) التطيلي، بنيامين بن الرابي يونة (ت569 هـ /1173م) رحلة بنيامين التطيلي، ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002 ص389.

(3) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج17، ص320.

يصل الجمعة إلا قليل ونودي من الديوان بحمل السلاح فلبس العوام والتجار والرؤساء ثيــاب الحرب...... [1]". وكان الحصار قوياً على بغداد وأهلها، إلا أن ما فتّ في عضد هذا الهجــوم أن جيش أتابكة الموصل قد فتر ولم يشارك في الحصار بل إن نور الدين محمود زنكي أرسل رسالة إلى أمير الموصل وإلى قائد الجيش يأمرهما باسترضاء الخليفة، وبهذا انتهى الحصـــار السلجوقي دون أن يحقق أي نتيجة[2].

لقد كان موقف الخليفة المقتفي لأمر الله مثالاً يحتذى من قبل مـــن خلفـــه مـــن الخلفـــاء العباسيين، وخاصة الخليفة الناصر لدين الله الذي سار على نفس السياسة الرشـــيدة للمقتفـــي، فهدم دار السلطنة السلجوقية ورفض طلب طغرل الثالث بذكر اسمه على الخطبة، ووسّع مـــن نفوذ الخلافة العباسية فشملت العراق بأجمعه، وضم الأحواز إلى العراق وأعقبهـــا بأصـــفهان وهمذان[3].

لقد توّجت هذه الانجازات بإنهاء الســيطرة الســـلجوقية رســـمياً عـــن العـــراق ســـنة 590 هــــ /1193م، وبذلك تحقق للخلافة الاستقلال النهائي عن السلاجقة الذي دخلوا العراق منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج18، ص112.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص233.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص142.

الفصل الأول

الخليفة الناصر لدين الله

المبحث الأول: حياته وشخصيته

أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد، الملقب بالناصر لدين الله، وقد بويع بالخلافة بعد أبيه المستضيء في مستهل ذي القعدة سنة 575هـ/1179م، وقام بأخذ البيعة له ذو الرياستين مجد الدين أبو الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصاحب أستاذ الدار [1]،

وظهير الدين أبو بكر منصور بن العطار صاحب المخزن، وحضر البيعة القضاة والأشراف وبنو هاشم وعدد كبير من بني العباس، وبايعه أيضاً الحجاج القادمون من خراسان، وأنشد الشعراء قصائدهم بين يديه، وخطب له في بغداد، ونثرت الدنانير على المنابر في المساجد، ثم أنفذت الكتب مع الرسل إلى سائر البلاد الإسلامية، فصدر الدين عبد الرحمن شيخ الشيوخ سار إلى أتابك بهلوان محمد لن إيلدكز بهمذان[2]، فتردد بدايةً ولكنه بايع بعد ذلك، وسارت رسل للملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، فبايع وأقام الدعوة فيما تحت يده من

(1) هو الإستدار وهو لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه، وتمتثل أوامره فيه. وهو مركب من لفظتين فارسيتين: إستذ ومعناها الأخذ، والثانية دار، ومعناها الممسك. القلقشندي، احمد بن علي (ت 821هـ/1418م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط1 ، ج5، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر ، دمشق، 1987، ص429. محمد، محمد صالح محي الدين، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ط1، دار طويق، الرياض 2004 ص49.

(2) همذان مدينة من عراق العجم من كور الجبل، كبيرة جداً فرسخ في مثله، محدثة إسلامية، ولها أربعة أبواب، وهي كثيرة المياه والبساتين والزروع. الحميري، محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت900 هـ /1495م) الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت 1980 ص596.

البلاد والثغور والشام ومصر، وأرسل رضي الدين القزويني مدرس المدرسة النظامية إلى الموصل فبايع صاحبها وخطب للناصر لدين الله[1].

أما عن صفاته الخلقية فلدينا نص ورد في رحلة ابن جبير يصف شكله وهذا نصه " اشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه، حسن الشكل، جميل المنظر، أبيض اللون، معتدل القامة، رائق الرواء"[2].

المبحث الثاني: سياسته في البلاط

كانت السياسة التي انتهجها الناصر في اختيار وزرائه وكبار رجال دولته تقوم على أساس المعلومات التي تصل إليه من أصحاب الأخبار، وذلك بعد أن ينشر بين الناس عن رغبته في تولية شخص معيّن لهذا المنصب أو لتلك الولاية، فضلاً عن تجاربه الشخصية المحدودة مع الناس، فإذا كان اتجاه الرأي العام في بغداد كما تعبّر عنه تقارير أصحاب الأخبار أصدر الأوامر بتعيينه[3].

وبعد أن يستقر صاحب المنصب في منصبه فإنه يخضع لرقابة دقيقة صارمة، من قبل أصحاب الأخبار، ويعتبر منصب أستاذ الدار والوزير ونائبه من أهم مناصب الدولة آنذاك، وبالرغم من أن الخليفة لم يسندها إلا لمن يكون على قدر كبير من الثقة إلا أنه كان يضع على

---

(1) الأيوبي، محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه (ت617 هـ /1221م) مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة (د.ت) ص6-7. ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني ت630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، ج9، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1997ص443-444. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص49-50.

(2) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت614 هـ /1217م) رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال ، بيروت 1990 ص182.

(3) ابن الطقطقي، محمد بن علي بن محمد (ت709هـ/1309م) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط1، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت 1997 ص308. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص50.

من يشغلها رقابة شديدة، فمثلاً كان الوزير ابن مهدي العلوي من أعظم وزراء الناصر علــى الإطلاق، ومع ذلك فإن الناصر اتخذ رقيباً عليه وهو آقسنقر الدوادار، فكان هــذا المملــوك " يطالع الخليفة بأخبار ابن مهدي، وأنه يكاتب الأعاجم ويسعى في إفساد الدولــة"[1]، وإن علــم الخليفة أن أحد وزرائه أو موظفيه أو أعوانه ارتكب خطأً اختلف العقاب شدّةً وليناً بــاختلاف المنصب الذي يشغله، فربما عزله أو صادر أمواله أو حبسه، ومما يشار إليه أن الناصــر لــم يستثن أحداً من ذلك حتى أقربائه من بنــي العبــاس، فــابن جبيــر الــذي زار بغــداد ســنة 580 هـ /1185م ذكر أن الناصر احتاط بالحبس على من خشي خطرهم علــى الســلطان والدولة[2].

ومن شدة حرص الناصر على أن لا يكون هناك ثغرة إلا ويسدها فقد اعتقل أقرب الناس إليه وهو ابنه أبو نصر محمد، فقد عيّنه ولياً للعهد سنة 585 هـــ /1189م وأرسل إلى البلاد يأمر بأن يُخطب له، كما يقول ابن الأثير: " خطب لولي العهد (أبي نصر) محمد بــن الخليفــة الناصر لدين الله ببغداد، ونثرت الدنانير والدراهم، وأرسل إلى البلاد في إقامة الخطبة، ففعــل ذلك"[3]، وفي سنة 601 هـ /1204م عاد الناصر مرة أخرى فقطع الخطبة عنه، وكتب إلــى كل ملوك الأطراف، ويذكر ابن العبري أن سبب عزله يرجع إلى خوف الناصر منــه علــى نفسه، ولم يكتف بحرمانه فقط بل إنه اعتقله وضيّق عليه، ومال إلى أخيــه الصــغير الأميــر علي[4]، ولما اضطر إلى إعادته إلى ولاية العهد والخطبة له بهــا ســنة 618 هـــ /1221م بسبب وفاة الأمير علي فقد حرص على أن يضعه تحت " الاحتياط والحجر لا يتصــرف فــي

---

(1) أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت665 هـ /1267م) الذيل على الروضــتين، ط1، صححه محمد زاهد الكوثري، القاهرة 1947 ص61.

(2) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص173-175. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص50-51.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص76.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص209.

شيء"، وقد ظلّ ولي العهد محبوساً حتى توفي أبيه حيــث أخرجــه قــادة الدولــة وبــايعوه بالخلافة(1).

لقد طبّق الناصر هذه السياسة بحزم على وزرائه وكبار قادته منذ أول يوم تــولى فيــه الخلافة، ففي سنة 575 هـ /1179م قبض على وزيره ظهير الدين أبي بكــر منصــور بــن العطار الذي ولي وزارة أبيه، ثم نقله إلى التاج العتيق حيث قيّد ووكّل به، ولم يزل على هــذه الحال إلى أن توفي في أواخر السنة المذكورة(2).

وفي كتاب مضمار الحقائق للأيوبي نستشف الأسباب التي دعت إلى نكبة ابــن العطــار ومقتله، فقوة شخصيته ومحاولته التحكم في الدولة على نحو ما كان عليه أمــره مــع الخليفــة المستضيء، فقد أورد أن الناصر أرسل أستاذ داره ابن الصاحب يحمل أمره بإقطــاع خادمــه مجاهد الدين خالص بن عبد الله الناصري منطقتي لحف الجبل والبنــدنيجين(3) ومــا يجــري معهما، فاستعظم ذلك الوزير ابن العطار، ولم يمتثل المراسم النبوية، فكان فــي جوابــه ذلــك التقدم بالقبض عليه ثم قتله(4).

وبعد ذلك استناب في الوزارة سليمان بن ساويرس ثم أقاله من منصــبه بعــد شــهرين، وولّى مكانه محمد بن هبة الله البخاري وبقي في وزارته إلى أن توفي، ولا مبرر لنجاته مــن العزل إلا طاعته الكاملة للخليفة، وقد استخلف الناصر بعده أبا الفتح صدقة بن أبــي الرضــا،

---

(1) ابن العبري، يوحنا بن هارون بن توما الملطي (ت685 هـ /1286م) تاريخ مختصــر الــدول، ط3، تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت 1992 ص242. محمد، عودة الروح للخلافــة الإسلامية، ص51-52.

(2) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص11. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص52.

(3) بلدة مشهورة في طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد، يشبه أن تعد في نواحي مهرجانقذق. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت626 هـ /1229م) ، معجم البلدان، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979 ص499.

(4) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص12. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص52-53.

فمكث في الوزارة ستة أشهر ثم عزله، مستوزراً محمد بن عبد الباقي بن الداريج الــذي بقــي في الوزارة نحواً من ثلاثة سنوات ثم تغير عليه لشموخه بأنفه وعزله من منصــبه[1]، وولّــى مكانه أبا المظفر عبيد الله بن يونس سنة 583 هـ /1187م ولقّبه جلال الدين، فخرج مقــدّماً على جيوش الخلافة لقتال طغرلبك السلجوقي، وما لبث أن وقع في أسره بعد استبســال فــي القتال، ثم أطلق سراحه بعد ذلك فرجع إلى بغداد ولم تطل مدّته فيها، وحــين أســر اســتناب الناصر قاضي القضاة علي بن البخاري ثم عزله بعد شهور، ليستوزر مكانه أبا المعالي سعيد بن علي الأنصاري، وبعــد أن أمضــى فــي الــوزارة ســنة قــام بعزلــه، ومــات ســنة 610 هـ /1213م حسب ما يذكر ابن الأثير[2].

وأوكل الوزارة مرّةً أخرى إلى أبي المظفر عبيد الله بن يونس، بعد أن خرج مــن أســر طغرلبك، ولكنه لم يبق فيها إلا بضعة أشهر ثم عزل فتولاها مؤيد الــدين محمــد بــن علــي القصاب، الذي قاد جيوش الخلافة وانتزع بها خوزستان وأصفهان وهمذان والري، ثــم مــات هناك بشعبان سنة 592 هــ /1195م بعد أن أمضى سنتين في الوزارة، وكان الناصــر قــد استناب في غيبته ببلاد خوزستان ابنه أبا الفضل أحمد، فلما وصل نعي أبيه إلى بغداد عــزل، واستوزر الخليفة قاضي القضاة أبا طالب علي بن البخاري مــرة ثانيــة علــى روايــة ابــن الكازروني[3]، ثم عزل بعد سنتين، وولي نيابة الوزارة الحسن بن نصر بن علــي المعــروف

(1) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص288.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص286. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص53.
(3) الكازروني، علي بن محمد البغدادي (ت697 هـ /1298م) مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، تحقيق مصطفى جواد وسالم الآلوسي، بغداد 1970 ص249-251.

بابن قنبر، الذي كان صدراً للمخزن ثم عزل بعد ثلاث سنين، وقبض عليه ثم أخرج من محبسه ميتاً سنة 604 هـ /1207م[1].

وكان شرف الدين بن قنبر هذا قد ولّاه الخليفة الناصر حجبة الباب، ثم ولي نيابة الوزارة، فاستغل منصبه في تحصيل الأموال لنفسه على وجه غير مشروع، وشيّد داراً في درب المطبخ من بغداد بلغت درجة كبيرة من الروعة، ثم ركبه الغرور فاشتد عسفه بالناس، فلما رفع أمره إلى الخليفة عزله[2].

وبعد ابن قنبر تولى ناصر بن محمد العلوي الرازي فأمضى فيها ثلاث سنين وبضعة أشهر، ثم رقي إلى مرتبة الوزارة فظل في منصبه سنتين وبضعة أشهر، تمكن خلالها من ناصية الأمور وأصبح صاحب السلطة العليا فيها، ثم قبض عليه سنة 604 هـ /1207م ونقل إلى دار طاشتكين في دار الخلافة ومعه أولاده وأهله وماله وذخائره، ولم يصادر الخليفة أي شيء من ممتلكاته لمكانته عنده[3]، وإن من أسباب عزله ما نسب إليه من الطمع في الخلافة، وادّعاء أحقيّتها بالنسب العلوي دون الناصر، وهو أمر لا يمكن للخليفة أن يتغاضى عنه، ويُذكر أن المكين القمي كاتب الإنشاء لابن مهدي وشى به عند الخليفة، وزعم له أنه يطمع في الخلافة بدعوى أنه علوي، وأنه يرسل الأموال إلى العجم في قواصر[4] التمر إلى أهله

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص61-62. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص54.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص61-62. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص54.

(3) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ/1297م) مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج3، تحقيق جمال الدين الشيال، الناشر د. ن، القاهرة 1980 ص178-179.

(4) مفردها القوصرة: وعاء من قصب للتمر. الأزهري، محمد بن أحمد (ت370 هـ /981م) تهذيب اللغة، ط1، ج8، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2001 ص281.

بخراسان ليجندوا العساكر ويقيموا ملكاً تكون وجهته بغداد(1)، وحين كثر القول في ذلك شــعراً ونثراً عزله الناصر(2).

ثم يأتي بعد ذلك أبا البدر محمد بن أحمد بن أمسينا الواسطي صــاحب ديــوان الزمــام، وبعد سنة وبضعة أشهر استاء الناصر منه وأمر باعتقاله، وأسندت نيابة الــوزارة بعــده إلــى مكين الدين محمد بن محمد القمّي كاتب الإنشاء، ولقب مؤيد الدين وتمكّن فــي الدولــة تمكنــاً تاماً، وكان أوحد زمانه في كل شيء، وبقي في الوزارة إلى أن توفي الناصر(3).

وإن انتقلنا إلى وظيفة أستاذ الدار نجد أنه نالها أيضاً الكثير من العزل والتنصيب، فلــيس الأمر مقتصراً على الوزير أو ولي العهد، فقد قبض الناصر على أستاذ داره مجد الــدين بــن الصاحب حين استشعر منه بعض الخطورة على الدولة، فقد أصبح مجد الدين ينتقــي للخليفــة وزيره ورؤساء دواوينه(4)، وأصبح شائعاً بين الناس مقولة أن أستاذ الدار قد تحكّــم فــي دار الخلافة، بحيث لو أراد أن يعزل الخليفة لفعل(5).

وكانت الخطوة الأولى التي عملها الناصر أن تغاضى عن أعمال أستاذ الدار بقصد وعن عمد ولغاية منه، وهي أن هذه الخطوة هي من باب الاستدراج والتوطئة الضرورية الرشــيدة لاعتقاله، والتخلص منه وبالفعل هذا ما قد جرى، فقد سنحت الفرصة له عندما وشى بــه إليــه أبو المظفر عبيد الله بن يونس الذي كان صنيعة لابن الحاجب، فقد قبّح أفعاله لــدى الخليفــة،

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص59-60.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص60. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص54-55.

(3) الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، ص249-251. محمد، عــودة الروح للخلافة الإسلامية، ص55-56.

(4) سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت654 هــ /1256م) مرآة الزمــان فــي تــاريخ الأعيان، ط1، ج8، حيدر آباد الدكن، الهند 1952 ص386.

(5) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص21.

وحذّره من عاقبة أمره معه، فقبض عليه في ربيع الأول سنة 583 هـ /1187م وقام بذبحه ومصادرة أمواله، وكان من ضمنها ألف ألف دينار[1]، ثم باشر الحكم بنفسه وقلّل إلى درجة كبيرة وواضحة بأهمية هذا المنصب.

ثم بعد ذلك أسند الناصر وظيفة أستاذ الدار بعد تخلّصه من ابن الصاحب إلى أبي المظفر عبيد الله بن يونس، ثم ما لبث أن عزله حين خشي منه الاستبداد، ثم عيّن أبا الفتح بن رزين في أستاذية داره، وعاد بعد قليل فعزله حتى لا يستأثر بالسلطة، وولّى مكانه بهاء الدين أبا نصر المبارك ابن الضحّاك ولقّبه عضد الدين[2].

وللقضاة نصيب من سياسة الناصر، فقد نجح الناصر في استعادة حق تولية القضاة وعزلهم من السلاجقة في أواخر عهدهم[3]، فقد ولّى أحمد بن علي بن هبة الله البخاري وظيفة أقضى القضاة، وذلك في سنة 594 هـ /1197م[4]، وظلّ فيها حتى رمضان من السنة التالية، حيث شكّ الناصر في ولائه وعزله، وأسند قضاء القضاة ببغداد وسائر البلاد الإسلامية إلى أبي الفضل القاسم بن يحيى الشهرزوري في سنة 595 هـ /1198م[5]، ثم عزله سنة 598 هـ /1201م حين طلب منه ذلك، وعيّن أبا الحسن علي بن عبد الله بن سلمان الحلّي،

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص386. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص56-57.

(2) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص451. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص57.

(3) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ /1200م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج9، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، ط1، دار الكتب بيروت، لبنان 1992 ص223.

(4) ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب (ت674 هـ /1275) الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج9، تحقيق مصطفى جواد، بغداد 1934 ص113-114.

(5) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج9، ص114.

ثم أعرض عنه وعزله تأديباً له سنة 600 هـ /1203م عندما ثبت أنه أخذ رشوة[1]، وعيّن مكانه في القضاء عماد الدين أبو القاسم عبد الله بن الدامغاني، وظلّ في القضاء نحواً من ثماني سنين فلما ظهر منه تسلّط لطول بقائه في المنصب عزله سنة 611 هـ /1214م وقلّد القضاء أبو المناقب محمود الزنجاني، ولكنه كالعادة دائماً ارتاب في أمره فعزله وأسند هذا المنصب لأبي عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان، الذي ظلّ قائماً في هذا المنصب حتى وفاته سنة 622 هـ /1225م[2].

ولم تسلم إمارة الحج من تدخلات الناصر فقد حبس سنة 588 هـ /1192م الأمير طاشتكين أمير الحج، لتفريطه في أمرين قدّر الناصر أنهما يمسّان سيادة الدولة، ويهدّدان أمن الخلافة، الأول هو التقصير في القتال عندما سار مع جيش الناصر لمحاربة طغرل السلجوقي سنة 583 هـ /1187م[3]، أما الثاني فخو اتّهامه بمراسلة السلطان الأيوبي صلاح الدين، وسعيه لأن يكون واحداً من أمرائه وتخلّيه عن خدمة الخليفة الناصر[4].

لقد حرص الخليفة الناصر على ضبط الأمور في العراق، وذلك إمعاناً في توطيد سلطة الخلافة العباسية، فكان دوماً هو الذي يتابع الأمور ويقف على مجرياتها بنفسه، وكان أيضاً حريصاً على متابعة أحوال أهل بغداد ومعرفة حقيقة الأوضاع بها، وكان كثيراً ما يخرج في الأسواق دون أن يفصح عن نفسه، وكان يخرج بنفسه كما يقول ابن جبير في ذلك: " على حالة اختصار تعمية لأمره على العامة، فلا يزداد أمره مع تلك التعمية الا اشتهاراً"[5]، ويتنكر

(1) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج9، ص115.

(2) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج9، ص207-208. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص58.

(3) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص415.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص117. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص59.

(5) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص182.

ويتنكر في الأسواق بلباس زي العجم، وأحياناً في زي الأتــراك، وأحيانـــاً أخـــرى فـــي زي الفقهاء[1].

ومن المؤكد أن الناصر استعان على ضبط الأمور في العراق بمجموعـــة كبيـــرة مـــن أصحاب الأخبار الذين توزعوا في معظم أرجاء بغداد، بدءاً بالوزراء وانتهاءً بين العامة فـــي الدروب والأسواق، حتى البيوت، وكذلك نجد أصحاب الأخبار في دواوين ملـــوك الأطـــراف الذين كانوا يتبعون نظرياً للخلافة، وكذلك المستقلين عن الخلافة، لمعرفة أحـــوالهم الظـــاهرة والمستترة، وقد بلغوا الغاية في توصيل الأخبار الدقيقة للناصر[2].

ومن يتتبع تاريخ الخلفاء العباسيين يجد أنه لم يسبق لأحد من الخلفـــاء أن بـــثّ العيـــون والجواسيس بمقدار ما بثّ الناصر[3]، وكل ذلك في سبيل توطيد أركان الدولـــة، فكـــان مـــن جواسيسه العلماء الذين خوّلهم مهاماً إضافية بالإضافة إلى ما لديهم من ســـلطات لاســـتخلاص المعلومات التي يريدونها واستخلاص أسرارها، ويذكر سبط ابن الجوزي أن الفقيـــه الحنبلـــي إبراهيم بن علي بن محمد بن بكروس (ت611 هــ /1214م) أصبح صـــاحب خبـــر، ببـــاب النوبي، وطرح الثوب الواسع " لباس العلماء"، ولبس المزند والحديد " لباس المخبرين"، وتقلـــد

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص119-120-230-232. محمد، عودة الـــروح للخلافـــة الإسلامية، ص59.

(2) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت764 هــ /1362م) نكث الهميان في نكت العميان، ط1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 2007 ص225.

(3) من الخلفاء الذين عرفوا بعنايتهم بالجواسيس والعيون الخليفة المأمون، فقد روي أنه كانـــت لـــه ألـــف وسبعمائة عجوز يطالعنه كـــل ليلـــة بأخبـــار الدولـــة. الحلبـــي، علـــي بـــن ابـــراهيم بـــن أحمـــد (ت1044 هــ /1635م) السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمـــين المـــأمون، ط2، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 ص264.

السيف وفتك في المال والحريم، وضرب جماعة في الخشب ورماهم في دجلة، وما كان يأخذ في مسلم لومة لائم [1].

ومن العيون من كان موظفاً بمنصب كبير، يقول الأيوبي في كتابه مضمار الحقائق وسر الخلائق عن تولية أحد الموظفين: " تقدم إلى أبو السعود بن جعفر أن يكتب في كل يوم مطالعة إلى أستاذ الدار بجميع ما يجري في المجلس من قليل وكثير فكان حاجب حجاب[2] وصاحب خبر وكان أستاذ الدار قد تغير على ابن البخاري النائب لكونه كان يسمع عنه أنه يخلو بابن الكرخي ويحدثه وأنه يذكر له أشياء يقولها للخليفة.............." [3]، ومن الموظفين كذلك الذين كانوا عيوناً وجواسيس للناصر عمرو العلي بن النشّال الهاشمي، الذي كان يتقلد منصب حاجب منطقة وحاجب منبر، يقول الأيوبي عنه : " ثم أحضر ابن النشال وأجلسه بين يديه وصار موضع ابن الكرخي وعلم الناس أن الخليفة قد تعصب لهذا ثم تقدم إلى هذا المذكور(ابن النشال) أن يكتب مطالعة تشتمل على أحوال الديوان سراً بحيث لا يعلم أحد وكبر عند الناس بهذه الحال...." وكان هذا سنة 580 هـ /1184م [4]، وفي بعض الأحيان يكون المخبر من السرية بحيث لا يعلم به إلا أستاذ الدار، يقول الأيوبي: " وفيها وضع أستاذ الدار

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص570-571. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص61.

(2) حاجب الحجاب، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بأمير حاجب؛ وعادته أن يكون مقدم ألف ؛ وهو الرتبة الثانية من النائب؛ ومن شأنه الجلوس بدار العدل، ولا يقف كما يقف حاجب الحجاب بين يدي السلطان بالديار المصرية، وإذا خرج النائب عن دمشق في مهم أو غيره، كان هو نائب الغيبة عنه، وإذا برز مرسوم السلطان بالقبض على نائب السلطنة بها، كان هو الذي يقبض عليه ويفعل فيه ما يؤمر به من سجن أو غيره، ويقوم بأمر البلد إلى أن يقام نائب آخر. القلقشندي، أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط1 ، ج4، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر ، دمشق، 1987 ص192.

(3) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص169.

(4) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص184.

من نقل إلى الخليفة أن أبا الحسن بن الكرخي يسمج ويقول عنه أشياء ويذكر جميع ما يكـــون فيه من أحوال تجري في خلوة أو مجلس ويتحدث بذلك في الأسواق وأن الدليل على صحة ما نقل عنه أن الخطير البزاز قد حكى عنه جميع ذلك فتقدم الخليفة بإحضـــار الخطيـــر البـــزاز وسمع كلامه فتقدم الخليفة بمنع ابن الكرخي من الدخول إليه"[1]، وبهذه الإجـــراءات اســـتطاع الناصر أن يُلم بكل كبيرة وصغيرة في الدولة، وأن يعرف ما يدور في مجالس كبار الموظفين وصغارهم، وما يجري في بغداد والمناطق الأخرى، حتى البيوت تجسّس عليهـــا، فقـــد كـــان الرجل يخشى أن يطّلع الناصر على ما يدور بينه وبين زوجه من نجـــوى حتـــى فـــي جـــنح الظلام[2]، فبهذا الأمر قضى على مكامن الأخطار وانحسمت مادة الفتن، واستتب الأمـــن فـــي أرجاء البلاد.

المبحث الثالث: سياسته مع المعارضة

الباطنية:

بداية لا بد من التعريف بالباطنية، فهي فرقة من الإسماعيلية الذين ينســـبون الإمامـــة لإسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق، وفي رأيهم أن الأرض لن تخلوا من إمام حي قائم إمـــا ظاهر مكشوف وإما باطن مستور، ولهم آراء شتى منها أن من مات ولم يعرف إمـــام زمانـــه مات ميتة جاهلية، وأشهر ألقابهم الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً، وهم يلقبون بالعراق الباطنية والقرامطة والمزدكية، ويلقبـــون بخراســـان التعليمية والملحدة، ويقولون نحن إسماعيلية لأننا تميزنا عن فرق الشيعة بهـــذا الاســـم وهـــم الشخص، وقد خلط الباطنية القدماء كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنفوا كتـــبهم علـــى هـــذا

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص183.

(2) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص474-475.

المنهاج، ومن آرائهم نفي الصفات؛ لأن إثباتها الحقيقي يقتضي شركة بين الله تعالى وسائر الموجودات وذلك تشبيه، ولهم دعوة جديدة تزعمها الحسن بن محمد الصباح[1] في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[2].

ونشير هنا إلى أن السلاجقة استعملوا الباطنية للتخلص من بعض الخلفاء في إطار صراع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، فقد قتلوا الخليفة المسترشد بالله سنة 529 هـ /1134م[3]، وقتلوا أيضاً ابنه الخليفة الراشد سنة 532 هـ /1137م[4].

ونال الوزراء نصيب من الاغتيالات التي نفّذتها فرقة الباطنية، فقد اغتالوا سنة 573 هـ /1177م ابن رئيس الرؤساء عضد الدين أبا الفرج محمد بن عبد الله المظفر وزير الخليفة المستضيء والد الناصر، وقد ذكر ابن الجوزي أن هذا الوزير خرج في موكب كبير وأبّهة عظيمة يريد الحج، " فلما وصل باب قطفتا[5] خرج رجل كهل فقال يا مولانا أنا مظلوم

---

(1) الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي، مولده في مرو، تتلمذ لأحمد بن عطاش (من أعيان الباطنية في عهد ملكشاه السلجوقي) ثم كان مقدم الإسماعيلية بأصبهان، ورحل منها، وطاف البلاد، فدخل مصر وأكرمه المستنصر الفاطمي وأعطاه مالا وأمره بأن يدعو الناس إلى إمامته، فعاد إلى الشام والجزيرة وديار بكر والروم، ورجع إلى خراسان، ودخل كاشغر وما وراء النهر، داعياً إلى المستنصر، ثم استولى على قلعة ألموت (Alamout من نواحي قزوين) وطرد صاحبها (سنة 483هـ/1090م) وضم إليها عدة قلاع، واستقر إلى أن توفي فيها سنة (518 هـ /1124م). الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748 هـ /1347م) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ط1، ج1، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت 1963 ص500.

(2) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت548 هـ /1153م) الملل والنحل، ج1، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت 1984 ص190.

(3) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597ه/1200م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، ط1، ج17، دار الكتب بيروت، لبنان 1992 ص301.

(4) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج17، ص332.

(5) محلة كبيرة ذات أسواق، بالجانب الغربي من بغداد، مجاورة لمقبرة الدير التي بها قبر معروف الكرخي، بينها وبين دجلة أقل من ميل، وهى مشرفة على نهر عيسى، وتتصل العمارة منها إلى دجلة.. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص374.

وتقرب منه فزجره الغلمان فقال الوزير دعوه فتقدم إليه فضربه بسكين في خاصـرته فصـاح الوزير قتلني ووقع من الدابة ووقعت عمامته فغطـى رأسـه بكمـه وبقـي علـى قارعـة الطريق......" [(1)]، كما ضرب حاجب الباب ابن المعوج بذات السكين عندما جاء لنجدة الوزير فأرداه قتيلاً[(2)]، وبهذه الواقعة انتقل خطر الباطنية إلى الداخل في بغداد وأصـبح قريبـاً مـن الخليفة.

بدأت العلاقة بين الناصر والخليفة بشكل عداء سافر، فهم ذاتهم الذين اغتـالوا أسـلافه، وحاولوا قتله، وسعوا في ذلك بحيلة ماكرة، فأسندوا مهمة الاغتيال لمـرأة تعـرف بالخليعـة، وكانت هذا المرأة صاحبة نفوذ عند الأمير حسام الدين غرغلي، وكان زوجها أيضـاً مهمتـه تقوم على حمل المشاعل أمام موكب الخليفة في مواكب الأعياد والمناسبات ويسـمّى صـاحب هذه المهمة الرّكابي، وهي وظيفة مناسبة لإتمام عملية الاغتيال، وقد أحضـرت هـذه المـرأة عندها جماعة من حلب من الاسماعيلية، وكلّفتهم بقتل الخليفـة وأسـتاذ داره، إلا أن عيـون الناصر وجواسيسه كشفوا أمرها، فألقي القبض عليها، وحملت في قارب إلى البصرة، وتقـدم الخليفة بغلق باب الأمير حسام الدين غرغلي وضربوا فيها مسامير بحيث لا تفتح وكذلك فعلوا بالمحارق من أعلى الدار وضربوا فيها مسامير بحيث لا يصعد أحد إلى سطح الـدار ووكـل أيضا بالدار جماعة من الفراشين[(3)]، إذ لا بد أن الأمير حسام الدين غرغلي كان ضـالعاً فـي هذه المؤامرة وإلا لما أقدم الخليفة على ذلك.

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج18، ص240.

(2) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج18، ص241. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص86.

(3) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص92–93. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص87.

ورأى الناصر منذ ذلك الوقت أن يولي هذه الطائفة اهتماماً واضحاً وكبيراً، فأرسل وزيره فخر الدين أبي البدر محمد بن أحمد الواسطي صدر ديوان الزمام ليقضي على فتنتهم عندما وصلته أخبارها من واسط، فقد جاءت الأخبار من بغداد عام 600 هـ /1203م بأن الناس في واسط نهضوا على قوم من الباطنية فقتلوهم وأحرقوهم، ونهبوا دورهم، كما قتلوا زعيمهم ابن عصية الذي كانت داره معقلاً لهم في واسط، وقد قتل من هذه المدينة في الفتنة ثلاثون رجلاً، ونجح وزير الناصر في حسم مادة الفتنة وتسكينها، بعد أن حبس جماعة من المشاغبين[1].

إلا أن هناك أمر داخلي تغيّر عند الباطنية، وأثّر على سياستهم الخارجية، ففي سنة 607 هـ /1210م أصبحت قيادتهم بيد زعيم جديد هو جلال الدين حسن بن محمد بن الحسن الصباح، فقد أرسل إلى الخلفاء وإلى ملوك الأطراف يعلن أن الله قد هداه إلى الحق، وأنه عاد مسلماً سنياً، وقد تبرّأ مع جماعته من الباطنية وأفعالهم، وبنوا المساجد والجوامع وأقاموا الجمع والجماعات، وصاموا رمضان وانتهوا عن المحرمات، واتبعوا جميع شرائع الإسلام، حتى يُظهر قائدهم أنه جاد فيما أعلن، أرسل أمه إلى مكة لأداء فريضة الحج، فاحتفى بها الخليفة الناصر لدى وصولها بغداد، كما أرسل جلال الدين حسن إلى فقهاء قزوين القريبة من مقره في ألموت[2]، يطلب إليهم مراجعة كتبه التي يقتنيها، ويفوّضهم في إحراق ما يرونه منافياً لتعاليم الإسلام، كما طلب من الخليفة الناصر وأمراء المسلمين أن يبعثوا إليه بعض

---

(1) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج9، ص118-119. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص87-88.

(2) قلعة ألموت: معناها بالديلم: تعليم العقاب، وقال أبو الفداء: إن بعض ملوك الديلم أرسل عقابا على الصيد فقعد على موضع ألموت، فرآه حصينا، فبنى عليه قلعة وسماها أله الراموت ومعناه بلسان الديلم: تعليم العقاب. ويقال لذلك الموضع وما يجاوره: طالقان. أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت732 هـ /1331م) المختصر في أخبار البشر، ط1 ، ج2، المطبعة الحسينية، القاهرة 1990 ص214.

الفقهاء والقضاة ليفقّهوا رجاله في أصول الشريعة الإسلامية، فلما حضروا عنده أحرق أمامهم كتب آبائه وأجداده، وليؤكد للجميع صدق نواياه وحسنها أرسل إلى الناصر من يقدّم بين يديه طاعته وخضوعه[1].

وقد كانت هذه الخطوة من الباطنية مثلجةً لصدر الناصر، لأنه وجد في دخولهم تحت طاعته قوةً للخلافة العباسية، وراحة للمسلمين من عدوانهم وفتنتهم، واستتباباً للأمن في البلاد، وبهذا استطاع جلال الدين حسن أن يكسب ثقة الناس، وأن يحظى بثقة الخليفة، وبالمقابل أكرمه الخليفة وخلع عليه الخلع السنية، وقرّبه منه كثيراً[2].

يعزو البعض هذا التغيّر في سياسة الباطنية إلى تأثرهم بشخصية الناصر لدين الله، ومعالجته الحازمة للأمور، والدليل على ذلك ما فعله هؤلاء القوم حين بعثوا للناصر مفاتيح بلادهم وقلاعهم، وذهباً مضروباً باسمه، وطيف به على جوانب بغداد[3]، بينما يعزو البعض الآخر هذا التغيّر إلى أن جلال الدين حسن زعيم الباطنية شعر بما أصاب طائفته من ضعف، لدرجة أنها أصبحت لا تستطيع المقاومة الشعور الإسلامي العام لها، ناهيك عن القوى الإسلامية المناوئة لنشاطها[4].

وفي هذا المقام يذكر ابن الأثير أن الخليفة الناصر قد نجح بالاستفادة من الباطنية، وتخلص من بعض خصومه السياسيين، وهذا راجع لقوة شخصيته وحزمه، ففي سنة

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص555. أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص78-81. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص88.

(2) براون، إدوارد جوانفيل، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربية أمين الشواربي، مصر 1954 ص578-579. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص89.

(3) كوك، ريجارد، بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد، ط1، ج1، بغداد 1962 ص178.

(4) حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول" غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية"، دار الفكر العربي، مصر 1949 ص85-86.

612 هـ /1215م عندما قتل مملوك الناصر منكلي عامله إيتغمش، وأرسل ينكر ذلك عليه، طلب من جلال الدين حسن مساعدته في قتال هذا المملوك، مقابل بعض الإقطاع، وقد وفى الخليفة له بما وعده به عندما تخلص من منكلي[1].

واستعان الناصر مرة أخرى بزعيم الباطنية على استخلاص بعض بلدان العراق العجمي من أيدي الخوارزمية، ولما تحقق للخليفة العباسي ما أراده انقطعت الخطبة للأمير الخوارزمي من العراق [2]، إلا أن هذا الوفاق لم يدم طويلاً وسرعان ما سقط هذا التحالف بين الخلافة العباسية وبين الحركة الإسماعيلية الباطنية، فقد تآمر على جلال الدين بعض أتباعه الذين لم يرضهم خروجه على تعاليم الباطنية الأوائل، فوضعوا له سماً في الطعام أودى بحياته سنة 618 هـ /1221م، وخلفه على زعامة الإسماعيلية ابنه علاء الدين محمد الثالث[3]، الذي نهج سياسة الاغتيال والقدر، مما دفع الخليفة مرّة أخرى إلى أن يتّخذ من الإسماعيلية الباطنية عدواً، ويضع نصب عينيه القضاء عليها[4].

الأمراء

هناك بعض الأمراء الذين خرجوا على الخليفة بالمناطق التي حكموها، ولكن الناصر استطاع أن يعيدها لحظيرة الخلافة العباسية، وكان في أغلب الأحيان لا يخرج إلى الحرب بنفسه، خوفاً أن يلقى المصير ذاته الذي لقيه الخلفاء الذين سبقوه، فمثلاً استغل الخلاف الذي

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص290-292.

(2) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول" غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية"، ص37.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص371.

(4) براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص580-583. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص90-91.

وقع بين الأتابك[1] عز الدين مسعود صاحب الموصل، ونائبه الأمير مجاهد الدين قايماز الذي كانت بيده إربل[2] وشهرزور[3]، ودقوقا[4] وجزيرة ابن عمر[5]، فحاصر بجنده أولاً دقوقا، ثم استعادها لتعود تابعةً للخلافة سنة 579 هـ /1183م[6].

واسترجع الخليفة أيضاً تكريت[7] في شوال سنة 585 هـ /1189م إذ سنحت له الفرصة الفرصة وانتهزها حين قُتل صاحبها الأمير عيسى بوساطة اخوته الذين ملكوا القلعة بعده، فبعث إليهم الجند وظلّ محاصراً لها حتى أعلنت استسلامها، وبعد ذلك دعاهم إلى بغداد ومنحهم الإقطاعات[8].

---

(1)الأتابك لفظ تركي يتألف من مقطعين وهما أطا بمعنى أب وبك بمعنى أمير، وأطلق هذا اللفظ زمن السلاجقة على أحد الأمراء الكبار الذين يولونه الوصاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير، وفي أيام المماليك بمصر أطلق على مقدم العسكر أو القائد العام للجيش ولذلك سمي أتابك العسكر. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص18. الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة، الإسكندرية 1978 ص122-125.

(2)إربل مدينة بين الزابين، لها قلعة حصينة لم يظفر بها التتر، مع أنهم ما فاتهم شيء من القلاع والحصون، بها مسجد يسمى مسجد الكف، فيه حجر عليه أثر كف إنسان، ولأهل إربل فيه أقاويل كثيرة. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت682هـ/1283م) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت د.ت ص290.

(3)شهرزور كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمذان. بها قرى ومدن. أهلها أكراد قطاع الطريق. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص397.

(4) دقوقا مدينة بين إربل وبغداد. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص459.

(5) جزيرة ابن عمر بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات، وأول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص138.

6) الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، ص245. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص80.

(7) تكريت بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهي غربي دجلة. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص38.

(8) الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، ص245.

وفي أواخر السنة ذاتها 585 هـ /1189م بعث الناصر بجيش إلى حديثة(1) وعانـه(2)، وبعد أن لقي مقاومة عنيفة من المتولّين عليها، استطاع استعادتها إلى حضانة الخلافة العباسية في ربيع الأول سنة 586 هـ /1190م، ونذكر في هذا المقام أن أصحابها لم يقوموا بتسليمها إلا بعد أن قلّت لديهم المؤونة، واشترطوا مقابل تسليمها إقطاعاً، فأقطعهم الخليفة ما شـرطوا عليه من إقطاع(3)، وتستمر سياسة الخليفة الناصر في إطار استعادة أملاك الخلافـة العباسـية المفقودة، ففي سنة 589 هـ /1193م استولى على إحدى قلاع خوزستان، تمهيـداً لاسـتعادة كامل الإقليم(4)، وكان للوزير ابن القصاب مؤيد الدين محمد بن علي، دراية واسـعة بـأحوال خوزستان(5)، من واقع تجاربه عندما كان والياً عليها، فعندما تسلّم نيابة الوزارة في بغداد سنة سنة 590 هـ /1193م أشار على الناصر بأن يكون على مقدمة الجند إلى خوزستان للسيطرة عليها وإعادتها للخلافة العباسية، فسمح له بذلك، ويبدو أن الظروف كانت سـانحة والفرصـة مواتية لذلك، فقد توفي صاحبها، واختلف أولاده من بعده(6)، كما قوّت هـذه الظـروف مـن عزيمة الخليفة الناصر، فجهّز الجيوش، وبعثها إليها بقيادة الوزير المذكور، وفي البداية دارت المراسلات بين جيش الخلافة وبين أهل هذه الولاية، وحين لم تؤت هذه المراسلات أية نتيجة، حصل القتال بين الطرفين، واستطاع جيش الخلافة أن يسيطر على مدينة تستر(7) في المحـرم

1) حديثة الموصل وهي بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى، وفي بعض الآثـار أن حديثة الموصل كانت هي قصبة كورة الموصل الموجودة الآن وإنما أحدثها مروان بن محمد الحمـار. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص230.

(2) عانة بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد في أعمال الجزيرة. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص72.

(3) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص401. محمـد، عـودة الـروح للخلافـة الإسلامية، ص81.

(4) الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، ص245-246.

(5) خوزستان اسم لجميع بلاد الخوز، وهو نواحي أهواز، بين فارس وواسط والبصرة وجبال اللّوز المجاورة لأصبهان. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص404.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص129.

(7) تستر أعظم مدينة بخوزستان اليوم، وهو تعريب ششتر ، ومعناه التفضيل في الطيب والنزهة. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص29.

من سنة 591 هـ /1194م، بالإضافة إلى أنه استعاد غيرها من القلاع والحصون[1]، وكـان الأمير قتلغ إينانج بن البهلوان ومعه عدد من الأمراء قد جاؤوا إلى الوزير ابن القصّاب وهـو مقيم على مدينة ميسان[2]، وكانوا قد هُزموا أمام جيش خوارزمشاه تكين، في موقعـة جـرت بينهم وبينه عند زنجان[3]، وقد استقبلهم الوزير وأحسن وفادتهم وأكرمهم، وأعطاهم الخيـول والخيام وكل ما احتاجوا إليه، وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء، وقادهم إلى همدان حيث استطاعوا هزيمة الجيش الخوارزمي منها ومن الري[4] ودامغان[5] وبسـطام[6] وجرجـان[7] وغيرها من المناطق[8].

غبر أن الأمير قتلغ إينانج بن البهلوان تغير هو والأمراء الذين معه على الوزير بعد أن وجدوا أن بلاد خوزستان قد خلت من الجيش الخوارزمي، فطمعوا في البلاد التـي اسـتعادها الوزير للخلافة العباسية، فعجّلوا في المسير إلى مدينة الري، وساعدهم على الـدخول تعـاون

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص445.

(2) ميسان اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان، وفي هذه الكورة أيضا قرية فيها قبر عزير النبي، عليه السلام. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص242.

(3) زنجان بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين، والعجـم يقولون زنكان بالكاف، وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب والحديث. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص152.

(4) الري مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الخيرات، قصبة بلاد الجبال، على طريـق السابلة، قال الإصطخرى: كانت أكبر من أصفهان بكثير، تفانى أهلها بالقتال في عصبيّة المذاهب حتى صارت كأحد البلدان. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص116.

(5) دامغان بلد كبير بين الري ونيسابور، وهو قصبة قومس، قال مسعر بن مهلهل: الدامغان مدينة كثيـرة الفواكه وفاكهتها نهاية، والرياح لا تنقطع بها ليلاً ولا نهاراً، وبها مقسم للماء كسروي عجيب. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص433.

(6) بسطام بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين، قال مسعر بن مهلهـل: بسطام قرية كبيرة شبيهة بالمدينة الصغيرة. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص421.

(7) جرجان مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، فبعض يعدها من هذه وبعض يعدها من هـذه، وقيل: إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص119.

(8) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص131. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص81-82.

الشيعة معهم، فقد فتحوا لهم أبواب محلّاتهم، ولكن جند الخلافة العباسية أسرع وضرب عليه حصاراً، واستطاع هذا الجيش في النهاية من دخول الري، وانتهبها بعد أن فرّ عنها الأمير قتلغ بعد أن كان قد فعل بها الأفاعيل[1].

وبعد ذلك اتّجه الأمير قتلغ ومعه الأمراء إلى مدينة آوة[2]، إلا شحنتها منعهم من الدخول، فاتّجه نحو مدينة كرج[3]، ونزلوا على مدينة دربند[4]، فهزمهم الوزير ابن القصّاب عندها بعد قتال صعب، تمكّن الأمير قتلغ من أن ينجو بنفسه، ورحل الوزير من موضع المصاف إلى همذان فنزل بظاهرها[5].

وكان الأمراء البهلوانية والمماليك قد أمروا عليهم في هذه الفترة التي نحن بصددها شخصاً من سادتهم يدعى " كوكجا"، واستطاعوا أن يستولوا على الري وما حولها من البلاد، ثم اتجّهوا إلى أصفهان لطرد الخوارزمية منها، وإذ هم على مقربة منها، وصلهم خبر أن الجيش العباسي قادم على أصفهان بقيادة سيف الدين طغرل، فأسرع كوكجا وأرسل على الفور من يقول لقائد جيش الخلافة العباسية أنه تحت خدمته وأنه سيدخل في طاعته، لقاء بعض من

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص132. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص82-83.
(2) آوة قرية بين زنجان وهمذان. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص283.
(3) الكرج مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همذان أقرب، ويضاف إليها كورة، وأول من مصرها أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي وجعلها وطنه. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص446.
(4) هي ذاتها باب الأبواب وهي مدينة على البحر، بحر طبرستان وهو بحر الخزر، وربما أصاب البحر حائطها، وفى وسطها مرسى السّفن، قد بنى على حافتي البحر سدّين وجعل المدخل ملتوياً، وعلى هذا الفم سلسلة فلا مخرج للسفينة ولا مدخل إلا بأمر، وهى فرضة لذلك البحر، وسمّيت باب الأبواب لأنها أفواه شعاب في جبل القبق. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص303.
(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص91-92. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص83.

إقطاع المدن التالية الري وجوارها، وقم[1] وقاشان[2] وما ينضم إليها من حد مزدغان، وبالمقابل يكون للخليفة أصفهان وهمذان وزنجان وقزوين، أجيب إلى ذلك، وكتب له منشور بما طلب، وأرسلت له الخلع، فعظم شأنه، وقوي أمره، وكثرت عساكره، وتعظم على أصحابه، وذلك في أواخر السنة 591 هـ /1194م[3].

أما بلاد خوزستان فقد ظلّت فترة طويلة من الزمن تتبع للخليفة العباسي الناصر، يعيّن عليها من يشاء من الولاة، ولكن هؤلاء الولاة أخذوا يتمرّدون عليه ويعلنون انفصالهم عنه، فكان لزاماً عليه أن يعمل كل ما بوسعه لوقف هذا التدهور، فقد كثرت الإمارات الصغيرة التي أقامها بعض الولاة والقادة الطموحين، فمثلاً في سنة 606 هـ /1209م أبدى والي خوزستان المملوك سنجر (مملوك الخليفة الناصر) نزعة في الاستقلال وبعضاً من التغيّر في الطاعة، لذلك بعث إليه الناصر يدعوه بالقدوم إلى بغداد، إلا أن سنجر رفض ذلك، عندئذ لجأ الخليفة إلى خيار القوة، فبعث مؤيد الدين القمي نائب الوزارة، وعز الدين نجاح الشرابي خاص الخليفة، بجيش إلى خوزستان،

وأمرهما بإخراج سنجر عنها، وإرجاعه رغماً عنه إلى بغداد[4]، وبالفعل تمكن جيش الخلافة العباسية من السيطرة على خوزستان، وإعادة المملوك المتمرد مرغماً مأسوراً إلى بغداد، وذلك في محرم سنة 608 هـ /1211م، وأقام الناصر مكانه المملوك ياقوت، ولكن

---

(1) قم مدينة بأرض الجبال بين ساوة وأصفهان، وهي كبيرة طيبة خصبة مصرت في زمن الحجاج بن يوسف سنة 83 هـ /702م. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص442.

(2) قاشان مدينة بين قم وأصفهان. أهلها شيعة إمامية غالية جداً. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص432.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص137. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص83.

(4) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت808 هـ /1405م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، ط1، ج3، دار الفكر، بيروت، 1988 ص657.

عفو الخليفة وسماحته كانت أكبر من تمرد سنجر، فعفى عنه بعد اعترافه بذنبه[1]، وهكذا فـــإن الخليفة الناصر قد عمل كل ما بوسعه من أجل إرجاع الخلافة إلى سابق عهدها، وقــد نجـــح بالفعل في ذلك.

(1) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج9، ص265. محمد، عودة الـــروح للخلافة الإسلامية، ص83-84.

الفصل الثاني

الخليفة الناصر لدين الله في المصادر التاريخية

المبحث الأول : المصادر التي جاءت على ذكر الناصر

هناك الكثير من المصادر التاريخية التي تطرقت لحياة الخليفة الناصر وإنجازاته، ومنها من اختص بفترته أعني منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأول هذه المصادر هو كتاب مضمار الحقائق وسر الخلائق لمؤلفه الملك المنصور(1)، ويعد هذا المصدر سجلاً دقيقاً للحياة السياسية في بغداد خاصة وفي العراق عامة، وترجع أهميته إلى أن مؤلفه قد شارك في صنع كثير من الأحداث السياسية التي كتب عنها، أو عاصرها معاصرة كاملة، وبخاصة حروب صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين، لأن صلاح الدين كان من أبرز أمراء تلك الفترة وأنشطهم على الصعيد العسكري، ومن الجدير بالذكر أن أبو الملك المنصور هو عمر وهو ابن أخي صلاح الدين، وقد وضع كتابه هذا في عشر مجلدات بالأصل(2)، جمع فيه جملةً من التواريخ، وأسماء من ورد عليه وأقام عنده"، كما يقول ابن شامه(3).

---

(1) محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه الأيوبي، المنصور ابن المظفر، صاحب حماة، وأحد العلماء بالتأريخ والأدب، سمع الحديث في الإسكندرية، وصار إليه ملك حماة بعد أبيه، فكان في خدمته بها قريب من مئتي عالم. وكانت له مع الفرنج حروب، صنف (مضمار الحقائق وسر الخلائق) و (طبقات الشعراء) و (درر الآداب ومحاسن ذوي الألباب) وجمعت أشعاره في (ديوان) وبنى (جسر المراكب) في حماة، ومن آثاره فيها (سوق المنصورية)، و (حمام السلطان) توفي في قلعتها سنة 617 هـ /1221م. الكتبي، محمد بن شاكر (764 هـ /1362م) فوات الوفيات، ط1، ج4، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1973 ص12.

(2) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص2(مقدمة المحقق).

(3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص46.

ومما اشتمل عليه من حوادث التاريخ، ويمتاز بالأصالة والجدة كلامه الدقيق المفصل عن حملة قراقوش المظفري على بلاد المغرب[1]، بالإضافة إلى حديثه عن كثير من الأمور السياسية، فقد تطرق للخليفة الناصر وبلاطه وسياسته وعن الكثير من رجال دولته، وبعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ولكن للأسف فإن هذا الكتاب لم يبق منه سوى جزء صغير، يتضمن حوادث السنوات ما بين 575-582 هـ /1180-1186م، وهذا الكتاب درس الأحوال السياسية الداخلية في العراق في السنوات الأولى من عهد الخليفة الناصر، وكذلك علاقة الخليفة الناصر بالسلطان صلاح الدين الأيوبي[2].

ومن المصادر التي تطرقت للناصر كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير[3]، وهو أعظم ما وصل إلينا من كتب التاريخ العام التي أُلّفت باللغة العربية، فقد اشتمل على تاريخ العالم منذ مبدئه حتى سنة 628 هـ /1230م أي قبل وفاة ابن الأثير بعامين، وأبرز ما يميز هذا الكتاب محاولة المؤلف عرض حقائق التاريخ عرضاً مبسطاً ومترابطاً وذلك بانتهاجه منهج الموضوع الواحد في إطار حولي، ويعد الكامل مصدراً أولياً يُعتمد عليه في دراسة التاريخ، وبخاصة ما يتصل بالغزو المغولي للعالم الإسلامي الذي حدث في مستهل القرن السابع الميلادي/ الثالث عشر الميلادي، بل وكل ما يتعلق في الفترة ما بين 555-630 هـ /1160-1233م، أما كتابه الآخر فهو التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ومن خلاله يمكن دراسة علاقة الخليفة

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص34-53-54-67-68-69-70.

(2) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص51.

(3) علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، المؤرخ الإمام، من العلماء بالنسب والأدب، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وسكن الموصل وتجول في البلدان، وعاد إلى الموصل، فكان منزله مجمع الفضلاء والأدباء، وتوفي بها. من تصانيفه الكامل، وأسد الغابة في معرفة الصحابة ، واللباب وتاريخ الدولة الأتابكية والجامع الكبير توفي سنة 630 هـ /1233م. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت681 هـ /1282م) وفيات الأعيان، ج3، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1994 ص348.

الناصر مع أتابكة الجزيرة والموصل، وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن المؤلف كان قد ولد في الموصل، وبالتحديد في جزيرة ابن عمر، ونشأ بها، وكان هو وأسرته على علاقة وثيقة بأتابكة الموصل، وتولوا لهم بعض المناصب الرسمية، ونالوا عطفهم ورعايتهم، وقد عبّر ابن الأثير عن وفاء أسرته لبيت زنكي أتابك الموصل بهذا الكتاب، وإهدائه إلى الملك القاهر عز الدين بن مسعود ت615 هـ /1218م[1].

وفي كتاب الباهر نجد دراسة وافية عن قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين زنكي، وظل يتتبع الأحداث حتى وفاة نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود سنة 617 هـ /1220م، غير أنه وجّه عنايته إلى سيرة عماد الدين زنكي المتوفى سنة 540 هـ / فقدّم مغلومات هامة ومفصلة عن الأحداث في عهده قلّما نجدها في أي مصدر آخر، واتّسم حديثه عنه بالتحيّز والمغالاة في مدحه، وإغفال عيوبه وأخطائه، وقد اتبع في كتابه هذا منهج التسلسل الزمني للأحداث التاريخية الغزيرة الموثقة مع عمق في التفكير ودقة في الاستقصاء والبحث.

ومن المصادر التي تطرقت لحياة الخليفة الناصر كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي[2]، وقد تناول في كتابه تاريخ العالم منذ بدايته، وشمل كثيراً من دقائق السياسة في العراق وبخاصة في حاضرة الخلافة بغداد، كما تناول الكثير من المظاهر الاجتماعية والمسائل الاقتصادية، وترجم لعدد من المشاهير والأعلام.

---

(1) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني(ت630هـ/1232م)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص: 2-3.

(2) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف، مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى (مشرعة الجوز) من محالها، له نحو ثلاث مئة مصنف، (ت597 هـ /1201م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص140.

وهناك أيضاً كتاب مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط بن الجوزي[1]، وترجع أهميــة هذا الكتاب إلى أنه عاصر معظم أحداث العراق والمشرق التي كتب عنها، كمــا كــان شــاهد عيان لبعضها الآخر، في الفترة التي قضاها ببغداد والعراق، وقد أرّخ في كتابه للخليقــة منــذ نشأتها، وانتهى فيه بحوادث السنة السابقة لوفاته، وقد تطرق لعلاقة الخليفة الناصــر بأتابكــة الموصل، وبعض مظاهر النشاط العقلي في عدد من بلدان العراق التي اجتازها في طريقه إلى دمشق.

ومن المصادر التي أرّخت للناصر ولما جرى في عهده مــن أحــداث كتــاب الجــامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون الســير لابــن الســاعي[2]، وبلــغ بكتابــه إلــى ســنة 656 هــ /1258م وهو تاريخ سقوط بغداد على يد المغول، وفي كتابه هذا نجد تفصيلاً دقيقاً لفتن الطوائف الدينية في بغداد، وسياسة الخليفة الناصر تجاهها، فضلاً عــن سياســته العامــة المتعلقة بتدبير أمور الدولة، وتسيير دفة الحكم فيها، وتناول الكتاب التعريف بعدد من العلمــاء والفقهاء والأدباء، وهذا المصدر تطرق لنظام الفتوة الذي اعتمده الناصر اسلوباً لتوثيق علاقته بالأمراء داخل الدولة، وأمراء الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي.

---

(1) يوسف بن قزأوغلي أو قزغلي بن عبد الله، المعروف بسبط أبي الفرج ابن الجوزي، مؤرخ من الكتاب الوعاظ، ولد ونشأ ببغداد، ورباه جده، وانتقل إلى دمشق، فاستوطنها وتوفي فيها (ت654 هــ /1256م). ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص226.

(2) علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله بن الساعي، من كبار المصنفين في التاريخ، مولده ووفاته ببغداد، كان خازن كتب المستنصرية، من تصانيفه " الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير، وتاريخ الشعراء وأخبار الحلاج وأخبار قضاة بغداد وأخبار الوزراء وذيل تاريخ بغداد وطبقات الفقهاء وغــرر المحاضرة وأخبار المصنفين (ــت674 هــ /1275م). ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص317.

ومن الكتب القيمة التي تطرقت للخليفة الناصر كتاب ذيل تـــاريخ بغـــداد للســـمعاني[1]، وأيضاً كتاب ذيل على ذيل تاريخ بغداد للسمعاني لابن الدبيثي[2]، وقد بدأه المؤلف من حيـــث انتهى السمعاني إلى قبيل وفاته، وترجم لعدد كبير من العلماء والكتاب والأدبـــاء، والشـــعراء والقراء، والخلفاء والوزراء وغيرهم، ممن لم يدركهم السمعاني أو فاته أن يترجم لهـــم، وأورد أثناء ذلك معلومات غزيرة متنوعة شملت السياسة والدين والأدب والعلم فضلاً عن كثير مـــن مظاهر الحياة الاجتماعية والحياة الفكرية على اختلاف اتجاهاتها.

وتعتبر المقامة التي ألّفها ظهير الدين الكازروني[3] من أفضل المصادر عن الناصر لدين الله، وأسماها مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، انفرد فيها بـــإيراد تفصـــيلات دقيقـــة شاملة عن مظاهر الحياة الاجتماعية في العراق على عهد الناصر، فتكلم عن طبقات المجتمع، وخص طبقة الخاصة بنصيب وافر من عنايته، كمـــا تحـــدث فـــي مقامتـــه عـــن المجـــالس

(1) عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، مؤرخ رحالة من حفاظ الحديث، مولده ووفاته بمرو، رحل إلى أقاصي البلاد، ولقي العلماء والمحدثين، وأخذ عنهم، وأخذوا عنه، نسبته إلى سمعان (بطن من تميم) . من أهم كتبه الأنساب و تاريخ مرو، و تذبيل تاريخ بغداد (ت562 هـ /1167م). السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت771 هـ /1369م) طبقات الشافعية الكبرى ط2، ج7، تحقيق محمود الطناجي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر، الرياض 1992 ص180.

(2) محمد بن سعيد بن يحيى بن الدبيثي، مؤرخ، من حفاظ الحديث، من أهل واسط، نسبته إلى (دبيثا) مـــن نواحي واسط، ووفاته ببغداد سنة 637 هـ /1239م، من مؤلفاته (ذيل على تاريخ السمعاني) الذي جعله ذيلا لتاريخ بغداد للخطيب، وله أيضاً (تاريخ واسط). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص394.

(3) علي بن محمد بن محمود الكازروني، مؤرخ وعالم بالحساب، من رجال العصر المغولي في العراق، من أهل بغداد، خدم في الديوان، وصنّف كتباً، منها روضة الأديب في التاريخ، و كنز الحساب، والملاحة في الفلاحة والنبراس المضيء في فقه الشافعية، و مختصر التاريخ ومقامة في قواعد بغـــداد والمنظومـــة الأسدية في اللغة، توفي سنة (697 هـــ /1298م). الصـــفدي، صـــلاح الـــدين خليـــل بـــن أيبـــك (ت764 هـ /1362م) الوافي بالوفيات، ج22، تحقيق، احمد الارناؤوط، ، دار إحياء التراث، بيروت، 2000 ص89.

الاجتماعية، ومجالس الغناء والموسيقى، وأسهب في الحديث عن مراسم الاحتفال بمختلف الأعياد والمناسبات، إلا أن حديثه عن طبقات المجتمع كان فريداً.

ثم إنه لا يمكن تجاوز كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة(1)، ومع أن هذا الكتاب يختص بتاريخ الدولة النورية والصلاحية، إلا أنه اشتمل على معظم الرسائل التي تبودلت بين الناصر والأيوبيين مبتدئاً بالسلطان صلاح الدين، فضلاً عن ذكره الكثير من الحقائق العامة لهذه الفترة التي يشترك في ذكرها الكثير من المؤرخين الآخرين، أما كتابه الآخر فهو الذيل وقد ذيّل به على الأول، وكان تكملة حقيقية للروضتين، وإن تميز بالطابع العام لكتب التراجم.

ويشترك مع كتاب الروضتين في تصوير علاقة الخلافة العباسية في فترة الخليفة الناصر مع السلاطين الأيوبيين كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لبهاء الدين بن شداد(2)، الذي يعد سيرة شاملة للسلطان صلاح الدين الأيوبي، وتظهر أهميته في دراسة موضوع العلاقات بين الخلافة وصلاح الدين من جهة، وبينها وبين أتابكة الموصل من جهة ثانية، ثم صلاح الدين وأولئك الأتابكة من جهة ثالثة، ومن الجدير بالذكر ان المؤلف كان سفير

---

(1) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، المشهور بأبي شامة مؤرخ، ومحدث، أصله من القدس، ومولده في دمشق، وبها منشأه ووفاته، ولي بها مشيخة دار الحديث الأشرفية، ودخل عليه اثنان في صورة مستفتيين فضرباه، فمرض ومات سنة665 هـ /1267م، له كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: الصلاحية والنورية وذيل الروضتين. الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص269.

(2) يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي المعروف بابن شداد مؤرخ، من كبار القضاة ولد بالموصل، ومات أبوه وهو صغير، فنشأ عند أخواله " بني شداد " وشداد جده لأمه، فنسب إليهم، وتفقه بالموصل، ثم ببغداد، وتولى الإعادة بالنظامية نحو أربع سنين، وعاد إلى الموصل، فدرس وصنف بعض كتبه، وسافر إلى حلب، فحدث بها وبدمشق ومصر وغيرها، من كتبه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة السلطان صلاح الدين، ودلائل الأحكام في الحديث، وملجأ الحكام عند التباس الأحكام في القضاء وفضل الجهاد والموجز الباهر في الفروع وكتاب العصا(ت632 هـ /1234م). ابن الجزري، شمس الدين أبو خير محمد بن محمد (ت833 هـ /1429م) غاية النهاية في طبقات القراء، ط2، ج2، عني بنشره برجستراس، دار الكتب العلمية ، بيروت 1995 ص395.

صاحب الموصل إلى الخليفة الناصر في طلب وساطته للصلح بين صاحبه عز الدين مسعود وبين صلاح الدين، ثم لعب دوراً كبيراً في تسوية هذا النزاع وتقرير قواعد الصلح بين الطرفين فضلاً عن أنه التحق بخدمة صلاح الدين ولازمه منذ سنة 584 هـ /188م وحتى سنة 589 هـ /1193م.

وأيضاً كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي[1]، وذلك في الجزأين الثاني والثالث من كتابه، حيث عرض لغلاقة صلاح الدي بأتابكة الموصل، وموقف الخلافة منهم ومن صلاح الدين، كما أورد بعض الرسائل التي تبودلت بين الناصر وصلاح الدين الأيوبي، ثم بعض أولاده من بعده، في شأن تدعيم تلك العلاقات.

ولا بد من أن نذكر ونحن في إطار ذكر المصادر التي أتت على الناصر، كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الأصبهاني[2]، الذي شارك برأيه وتدبيره في جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين، وكتب عدداً من رسائل صلاح الدين إلى الناصر يحيطه فيها بمجريات

---

(1) محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل، مؤرخ، عالم بالمنطق والهندسة والأصولين، من فقهاء الشافعية. مولده ووفاته في حماة أقام مدة طويلة في مصر، واتصل بالملك الظاهر بيبرس فأرسله في سفارة عنه إلى ملك صقلية مانفيرد، ولما عاد خلع عليه بلقب قاضي القضاة وشيخ الشيوخ بحماة، ومن كتبه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، وغيرها الكثير من المؤلفات (ت697 هـ /1298م). الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764 هـ /1362م) نكث الهميان في نكت العميان، ط1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 2007 ص236-238.

(2) محمد بن محمد صفي الدين، عماد الدين الكاتب الأصبهاني، مؤرخ، عالم بالأدب، من أكابر الكتاب ولد في أصبهان، وقدم بغداد حدثاً، فتأدب وتفقه، واتصل بالوزير عون الدين (ابن هبيرة) فولّاه نظر البصرة ثم نظر واسط، ومات الوزير، فضعف أمره، فرحل إلى دمشق، فاستخدم عند السلطان (نور الدين) في ديوان الإنشاء، وبعثه نور الدين رسولاً إلى بغداد أيام (المستنجد) ثم لحق بصلاح الدين بعد موت نور الدين، فكان معه في مكانة (وكيل وزارة) إذا انقطع (الفاضل بمصر لمصالح صلاح الدين قام العماد مقامه، ولما توفي صلاح الدين استوطن العماد دمشق ولزم مدرسته المعروفة بالعمادية، وتوفي بها سنة 597 هـ /1201م له كتب كثيرة، منها خريدة القصر والفتح القسي في الفتح القدسي والبرق الشامي. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص147-153.

الأمور وتفصيلاتها، ويطلب مساعدته ومؤازرته ضد الصليبيين عند حصارهم عكا، أو يبشره بما فتح الله على المسلمين من الظفر بالفرنج في معركة حطين، أو القدس الشريف وغير ذلك من شؤون الحرب والجهاد، وبما أن العماد الأصبهاني من رجال صلاح الدين الذين عاشوا معه جهاده، وكان المعبر عنه والناطق بلسانه إلى الناصر وملوك الأطراف، فإن معلوماته التي دوّنها عن هذه الأمور في الفتح القسي في الفتح القدسي كانت بلا شك عالية الصواب والمصداقية.

أما الكتب التي عالجت نضال الناصر ضد سلاجقة العراق وإيران فيأتي في مقدمتها كتاب راحة الصدور وآية السرور للراوندي[1]، وقدّمه في هذه السنة إلى السلطان كيخسرو بن قلج أرسلان من سلاجقة الروم، وقد وصف رضا زاده شفق كتاب راحة الصدور وآية السرور بأنه

أهم كتاب فارسي في تاريخ سلاجقة إيران، منذ بدأ أمرهم حتى انقرضوا على أيدي شاهات خوارزم، وهذا الكتاب يحوي معلومات وافرة عن نضال الخليفة الناصر ضد بقايا سلاجقة العراق، وبخاصة آخر سلاطينهم طغرلبك الذي قتل على أيدي جيش الخلافة سنة 590 هـ /1193م، وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أن الراوندي كان في خدمة طغرلبك، وهذا الكتاب غني بمادته عن بعض نواحي الحياة الاجتماعية خاصة فيما يتصل بالمنادمة وآدابها، والشروط الواجب توافرها في المنادم، وكذلك ما كتبه عن لعبة الشطرنج والنرد وفوائدهما، هذا بالإضافة لدراسته لكثير من الشعراء والأدباء الذين عاشوا زمن مؤلفه أو قبله بقليل[2].

---

(1) . ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، 230.

(2) شفق، رضا زاده، تاريخ الأدب الفارسي، نقله من الفارسية إلى العربية محمد موسى هنداوي، دار الفكر العربي، القاهرة 1947 ص120-120.

وليس ببعيد عنه كتاب تاريخ دولة آل سلجوق للإمام عماد الدين الأصفهاني الذي كان من بيت عمل الكثير من أفراده في وظائف رفيعة الشأن في الدولة السلجوقية، كما أن العماد نفسه تلقى علومه في المدرسة النظامية ببغداد، وفاز بوظيفة كبيرة في واسط، وقد دفعته هذه الصلة مع غيرها من الأسباب إلى تأليف هذا الكتاب، ثم اختصره الشيخ الفتح بن علي البنداري[1] فصار ينسب إليه، وقد جمع كتاب تاريخ دولة آل سلجوق تراجم لسلاطين السلاجقة، وأرّخ لعلاقتهم بخلفاء بني العباس، وخاصة الخليفة الناصر، حيث صوّر صراعه معهم الذي انتهى بسقوط دولتهم في العراق، وتكلم عن نشأة بعض دول الأتابكة التي انشقت عن دولة السلاجقة العظام، وعرض أيضاً للفتن التي ثارت في العراق وبعض بلدان المشرق بين السنة والشيعة وبعض الطوائف الدينية الأخرى.

المبحث الثاني: صورة الناصر السلبية في المصادر

إن من أهم المصادر التي وقفت موقفاً سلبياً من الناصر كتاب اللمع في الحوادث والبدع لابن بيدكين التركماني، والذي وقف موقفاً مناقضاً لنظام الفتوة، الذي ابتدعه الناصر، واستمر حتى نهاية عصر المماليك وما بعده، ويعتبره التركماني من أقبح البدع التي تغضب الرحمن وترضي الشيطان، فلقد خرج أصحابها عن السنة، وما جاء به القرآن، وعملهم لا يعمله إلا كل مبتدع وتمرد وشيطان، بل إنه وصف الفكرة التي يقوم عليها كيانهم بأنها" لا أصل لها في

(1) الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، أديب بالعربية والفارسية، ولد ونشأ بأصفهان، وانتقل إلى دمشق سنة 614هـ/ فاستمر فيها إلى أن توفي، ترجم الشاهنامة عن الفارسية، وله تاريخ بغداد وزبدة النصرة اختصره من كتاب نصرة الفترة لعماد الدين الكاتب، في تاريخ الدولة السلجوقية (ت643 هـ /1245م). الزركلي، خير الدين محمود، الأعلام، ط15، ج5، دار العلم للملايين، 2002 ص134.

الشرع، وما أنزل الله بها من سلطان"[1]، ويؤكد ابن بيدكين أن انتساب الفتى إلى علي بن أبي طالب كذب وافتراء، وإن كل ما يقوله كبير الفتيان كذب أيضاً، وإن جمعهم المردان وإخوان البطالة ضلالة، وجو الاحتفال الذي يقام حين يلتحق بهم أعضاء جدد مشبع بالخروج عن الدين والفسق[2]، وإفساد أولاد المسلمين الذين يتعلمون من هؤلاء الضرب بالسكين[3]، وفضلاً عن ذلك فإن لباس الأمرد ذنب عظيم، وشد التكة بين جمع من المسلمين لا بد أن يوجب لهم المقت من رب العالمين، وفي نظر التركماني أن كل هذه الأشياء تأتي من قلة الحياء والدين، كما يؤكد أن الفتى الكبير وهو علي بن أبي طالب بريء من تلك الأخوّة، ومن هؤلاء الفتيان، ثم يكرر التركماني رواية أهل التفسير أن الآية (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) [4] نزلت في حق علي بن أبي طالب[5]، وينصح التركماني بالطريق السوي ألا وهو كسر الأصنام المعنوية، إن كسرتها فأنت فتى، وهي النفس والشيطان، والهوى والشهوة والدنيا، وفي رأي التركماني أن شعيرة الفتيان" لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي"، التي تصف أخلاق علي وطاعته وعلمه وشجاعته وصدقه لا تتفق مع بدع الفتيان وما ابتدعوه، وأكثر من ذلك فإنهم قد أضافوا ما يفعلونه من القبائح لأمير المؤمنين، فإن احتجوا بفعل هذه المحظورات كخلاص محبوس منهم، أو من لزمه دين، بأنهم يفعلون الخير فقد اخترقوا القانون[6].

---

(1) ابن بيدكين، ادريس بن بيدكين بن عبد الله، اللمع في الحوادث والبدع، تحقيق وتقديم صبحي لبيب، القاهرة 1986 ص113.

(2) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص114-116-121.

(3) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص121.

(4) القرآن الكريم، سورة الإنسان، الآية 8.

(5) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص116.

(6) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص117.

لا شك أن كل هذه الانتقادات هي انتقاد مبطن للخليفة الناصر لــدين الله، فالناصــر قــد أصبح هو الفتى الذي يشرب له كل الفتيان كأس الفتوة، حتى أنه بعث إلى كل ملوك الأطراف أن يشربوا له هذا الكأس، يقول ابن واصل في كتابه مفرج الكروب في أخبار بنــي أيــوب: " وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبســوا له سراويلها، ويكون انتماؤهم إليه، ورعية كل ملك يشربون لذلك الملك، ويلبسون له، ففعلــوا ما أمروا به"[1]، بل لقد انتسب الملوك إليه في رمي البندق وجعلوه قدوتهم فيه[2].

مع العلم أن الخليفة قام بهذه المحاولة للم الشمل، وإعطاء الخلافة مكانــة رســمية فــي العواصم الإسلامية الخاضعة للعباسيين، وكان هدفه السعي إلى إحيــاء ســلطة الخليفــة فــي الولايات، وإلى تدعيم مركزه في العراق، وإلى تخفيف شقة الخلاف بين السنة والشيعة، أمــلاً في أن يتمكن بذلك من توحيد الصفوف لمواجهة الأخطار التي بدأت تتدلع من أواســط آســيا خلف ما وراء النهر، وأصبحت تهدد الكيان العباسي وبغداد في القرن السابع الهجري/ الثالــث عشر الميلادي.

إن التركماني حينما وجّه نقداً للناصر كما أسلفنا، لم يكن على علم بأهداف الخليفة أو بما يواجه العالم الإسلامي من أخطار، ليس آخرها خطر المغول الذي شاهده، ولكــن يظهــر أن التركماني آثر أن يستمر على مبدئه في الدفاع عن السنة والتمسك بأن من واجــب الدولــة أن ترعى أهلها، وأن الدولة لها مؤسسات في الدفاع عنهم في الداخل والخارج، يعني أنه بالشرطة وبالجيش، لذلك اعتبر عمل الفتيان لتخليص المحابيس من أصحابهم ذنباً ووزراً، ويستمر فــي طرحه لأفكار الفتوة فيقول: " فإن قالوا إن هذه الطريقة التي نحن عليها مــا أحــدثناها، بــل

(1) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ/1297م) مفرج الكروب في أخبــار أيــوب، ج3، تحقيق جمال الدين الشيال، د. ن، القاهرة 1980 ص206-207.
(2) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج4، ص164-166.

أخذها كبير عن كبير إلى الخليفة ((يقصد الخليفة الناصر)) فالإجابة ناصعة: ليس ذلك بحجة[1]، وحجة التركماني ضدهم هي قول الرسول: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين[2]، ولم يقل بسنة الخارجين، فقد كان في الخلفاء الخارج عن السنة، ولا يحل لأحد من خلق الله أن يطيع الخليفة، ويعصي الشريعة الشريفة لقوله عليه الصلاة والسلام لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[3].

ويتابع التركماني أن على ولاة الأمر أن يزيلوا من بين المسلمين ما تفعله هذه الطائفة الضالة من البدع والبهتان والزور، فردعهم والله مثوبة عظيمة تقرب للرب الغفور، وتنجي صاحبها من أهوال يوم النشور، ثم أمعن في السخط على تلك الفتوة فربط القضاء عليها بالأمر بالمعروف الذي يقرب للرب الرؤوف، وانتهى إلى أن من رضي بهذه الفتوة لم يرض الله عنه، لما جاء في الحديث " من رضي بالفاحشة كمن عملها"، أو من كثّر سواد قوم فهو منهم"، بل إنه التمس في قول المسيح دليلاً على ما يورد " يا معشر الحواريين تحبّبوا إلى الله ببغض المعاصي"[4].

في الواقع إن الخليفة الناصر لم يكن مبتدعاً لتنظيم الفتوة، بل هي قديمة أرجعها ابن المعمار إلى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي زمن الناصر زادت الفتن ببغداد بحيث أصبح فتيان كل محلة يشكلون جماعة واحدة ويتعصبون ضد المحلات الأخرى، فرأى الناصر أن الفتوة لا تزال تتعرض للجرائر والاضطراب، فقام بإلغاء الفتوة القديمة، وأمر أن تجدد فتوة الفتيان الذين لم يأخذوا التفتي عنه، وصار بذلك المرجع لجميع الفتيان، والقبلة الجديدة في

(1) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص121.

(2) ابن بطال، علي بن خلف بن عبد الملك (ت449 هـ /1057م) شرح صحيح البخاري لابن بطال، ط2، ج7، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية 2003 ص448.

(3) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص121.

(4) ابن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، ص123.

التفتي التي تستوجب التجديد، والتي هي انتماء جديد، وأمور الفتوة ستتم معالجتها في فصل لاحق.

أما الكتاب الثاني الذي وجدنا فيه تحاملاً على الناصر فهو كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، الذي وقف موقفاً سلبياً من الناصر، فأورد عدة اتهامات في مواضع عدة من كتابه الكامل، أظهر فيها الخليفة شخصاً متناقضاً في أفعاله وتصرفاته، والتي دفعته إلى ارتكاب أخطاء عدة في مسيرته، التي استمرت ما يقارب سبعةً وأربعين عاماً.

يقول عند حديثه عن وفاة الناصر : " ولم يطلق في طول مرضه شيئاً كان أحدثه من الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة، في رعيته ظالماً، فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ; ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة، ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج، فبقيت مدة، ثم بطلها، وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصةً، ثم أعادها، وجعل جل همه في رمي البندق، والطيور المناسيب، وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها، إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة.

وكذلك أيضا منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره، ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتمي إليه، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك إلا إنساناً واحداً يقال له ابن السفت من بغداد، فإنه هرب من العراق ولحق بالشام، فأرسل إليه يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه، وينسب في الرمي إليه، فلم يفعل، فبلغني أن بعض أصدقائه أنكر عليه الامتناع من أخذ المال، فقال: يكفيني فخراً أنه ليس في الدنيا أحد إلا يرمي للخليفة، إلا أنا.

فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعظم الأمور، وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم[1].

إن قراءةً أولية لهذا النص تجعل القارئ يتهم الناصر بالتهم التالية، اتهامه بمراسلة المغول واطماعهم في أملاك الدولة العباسية، واهتمامه بالفتوة وانشغاله عن مصالح الأمة، وعدم اتباعه سياسة واحدة وتضارب أفعاله، وكثرة فرضه للضرائب على الناس.

ولكن هل هذه التهم صحيحة؟ أم أن هناك تحاملاً على الناصر؟ أما عن مكاتبته للمغول، فقد أورد سنة 617 هـ / 1220م" وقيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لا يذكر في بطون الدفاتر:

فكان ما كان مما لست أذكره ... فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر[2]

ثم جاء بعده المؤرخون وردّدوا ما قاله، وبعضهم كان مشكّكاً دون أن ينفيها أو يثبتها، فأبو الفداء ينقل الرواية حرفياً عن ابن الأثير[3]، أما ابن الوردي فإنه ينقلها مشكّكاً بها فيقول: " وقيل أنه هو الذي كاتب التتر ليشتغل بهم خوارزم شاه عن العراق[4]، وكذلك أوردها ابن الأثير فقال : قال ابن الأثير: وإن كان ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذي أطمع التتار في البلاد وراسلهم فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم[5]، وأوردها

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص400-401.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص336.

(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص136.

(4) ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر(ت 749هـ / 1349م) تاريخ ابن الوردي، ط1، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت 1996 ص144.

(5) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر(ت774 هـ /1372م) البداية والنهاية، ط1، ج13، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1988 ص125.

الغساني نقلاً حرفياً عن ابن الأثير، فيقول محقق العسجد في دراسته للكتاب: لما لم نعثر علــى نسخة ثانية للعسجد، ونظراً للتشابه الكبير بين حوادث الكتابين، فقد اعتبرنا الكامل نسخة ثانيــة للعسجد لغرض المقابلة، والتوثق من الحوادث في القسم الذي حققناه من العسجد حتــى ســنة 628 هـ /1230م[(1)].

ثم يأتي المؤرخ المصري المقريزي بعد قرنين من الزمان ليؤكد التهمة فيقــول: " وفــي خلافته ضرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا إل همذان، وكان هو السبب في ذلك فإنه كتــب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفاً من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه"[(2)].

وهذه التهمة كان يرددها السلطان جلال الدين منكبرتي وهو آخر حكــام الخــوارزميين، فكان يقول: " كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكفار إلى البلاد، ووجدنا كتبه إلــى الخطــا وتواقيعه إليهم بالبلاد والخيل والخلع"[(3)]، وكثير من المؤرخين أيّدوا هذه التهمة، منهم عبــاس العزاوي[(4)]، ثم حافظ حمدي الذي اعتمد آراء المستشرقين مثل دوسون وهــوررث وبــارون وجيرنار[(5)].

لا بد من القول أن الخليفة الناصر بذل جهوداً لإعادة اللحمة إلى العالم الإســلامي، فلــم يتردد من إقامة علاقات دبلوماسية مع الحشاشين في قلعة ألموت، ففي سنة 608 هـ /1212م

(1) الغساني، (ت804 هـ /1402م) العسجد المسبوك، ص114 (مقدمة المحقق).
(2) المقريزي، أحمد بن علي (845 هـ /1441م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 ص218.
(3) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص624.
(4) العزاوي، عباس، العراق بين احتلالين، ج1، مطبعة بغداد، بغداد 1935 ص96.
(5) حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، بيروت (د.ت) ص53.

دُعي الإمام الإسماعيلي حسن الثالث إلى الجماعة الإسلامية، ولعل في ذلك نوع من إنهاء تلك الكراهية التي كانت مستعصية بين الطرفين، وخُطب للخليفة الناصر فوق منابرهم[1].

كما حرص الناصر على إدامة الود والتعاون بين العباسيين والأيوبيين في مصر والشام خاصة بعد قيام نور الدين زنكي 567ه/1171م بالقضاء على الدولة الفاطمية بمصر وإعـادة الخطبة للخليفة المستضيء، فتم للخلافة العباسية الهيمنة الروحية على مصـر، وقـد تبادلـت الخلافة ببغداد مع مصر والشام الوفود والبشارات، وكانت الخلع والهدايا تُحمل بـين الحكـام والأمراء والولاة[2].

إن المصادر لم تذكر عن مساعدات عسكرية من الخليفة إلى حكام الشـام ومصـر، لأن الخليفة هو الذي كان يحتاج المساعدة المالية لإعادة بناء دولة الخلافة ومؤسساتها، الأمر الذي دفعه لفرض ضرائب جديدة، كما أن حكام مصر والشام كانوا متخوفين أن يقعوا تحت سيطرة الخلافة الكاملة، فاكتفوا بالعلاقة الودية والدعم المعنوي والتأييد الروحـي، والاحتكـام لـرأي الخليفة عند نشوب النزاعات[3]، وتستمر هذه العلاقة الحسنة بين الخلافة والدولة الأيوبية، فقـد أسرع أولاد صلاح الدين إلى إعلان الولاء للخيفة وطلب التقليد منه، بل إن الخلافـات التـي نشبت بين ورثة صلاح الدين أعطت الفرصة لتغلغل نفوذ الخلافـة العباسـية أكثـر وأكثـر، فالسيوطي يقول:" وكان الملوك والأكابر بمصر والشام إذا جرى ذكره في خلـواتهم خفضـوا أصواتهم هيبة وإجلالاً " [4]، وبالرغم من أن المقتفي لأمر الله قـد تخلـص مـن السـيطرة

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص555.

(2) حمارنة، صالح، وقفة عند الخليفة الناصر لدين الله (553-622 هـ /1158-1225م)، بحث ضـمن مجموعة دراسات مهداة إلى عبد الكريم غرايبة، عمان 1988 ص145.

(3) حمارنة، صالح، وقفة عند الخليفة الناصر لدين الله (553-622 هـ /1158-1225م)، ص147.

(4) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/1505م) تاريخ الخلفاء، ط1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر 1952 ص319.

السلجوقية على العراق، إلا أن الطموح السلجوقي في استعادة نفوذهم المفقــود ظــل حلمــاً، وعندما جاء السلطان طغرلبك الثالث بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه السلطنة ســنة 583 هـ /1187م عاود المحاولة فأرسل إلى الناصر يطلب منه تعمير دار السلطنة ليســكنها، وهي الدار التي كان ينزل بها سلاطين السلاجقة حين يأتون لبغداد، فما كان من الناصر إلا أن أمر بهدم الدار وتسويتها بالأرض[1].

ولم يكتف الناصر بهذا بل إنه قام بمحالفة أعداء طغرلبك من الخوارزميين، فأرسل إلــى خوارزم شاه علاء الدين تكش يطلب منه قتال السلاجقة مقابل تفويضه حكم البلاد التي فتحها، ولم يتأخر علاء الدين واعتبر هذا الطلب بمثابة الاعتراف بهم وشرعيةً لهم، وسار على الفور والتقى طغرل في الري سنة 590 هـ /1194م وانتهت المعركة بمقتــل طغــرل[2]، وبــذلك انتهت دولة السلاجقة.ولكن علاء الدين تكش راودته أحلام طغرل في السيطرة علــى بغــداد، فعندما أرسل إليه الخلع لم يستقبل رسول الخليفة ورفض لبس الخلعة، فكان هذا إيــذاناً ببدايــة العصيان والتمرد[3]، وردّ الخليفة على هذا بــأن أرسل جيشاً سنة 591 هــ /1194م فاسترد أصفهان ولاحقاً خوزستان[4] وهمذان[5] والري[6].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص44.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص128.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص129.

(4) خوزستان وهو اسم لجميع بلاد الخوز، وهو نواحي أهواز، بين فارس وواسط والبصرة وجبــال اللّــوز المجاورة لأصبهان. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص404.

(5) همذان مدينة من الجبال أعذبها ماء وأطيبها هواء، وهى أكبر مدينة بها. الحموي، معجم البلــدان، ج5، ص410.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص136. الري مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الخيرات، قصبة بلاد الجبال، على طريق السابلة. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص116.

وحين عاود السلطان علاء الدين تكش تهديد الناصر، قام الناصر باستغلال سوء العلاقة بين الخوارزميين والغوريين، فراسل سلطان غزنة[1] غياث الدين الغوري لمهاجمة الخوارزميين منعاً لهم من التوجه إلى بغداد، فأرسل غياث الدين إلى سلطان الخوارزميين يتهدده بقصد بلاده وأخذها[2]، وعندما وجد علاء الدين تكش الموقف لغير صالحه أرسل سفارة إلى الناصر معتذراً عن تهديده، ولتأكيد حسن النوايا أرسل علاء الدين أخاه إلى بغداد إظهاراً للطاعة واعتذاراً عن طلبه الخطبة[3].

ولم يدم صفو العلاقة بين الخوارزميين والدولة العباسية، فحاول السلطان علاء الدين محمد بن السلطان علاء الدين تكش سنة 614 هـ /1217م من جديد السيطرة على الخلافة العباسية، فأرسل رسالة شبيهة برسالة والده، وأعلن خلع الخليفة العباسي وتنصيب خليفة علوي يُدعى علاء الملك الترمذي[4]، ثم جهّز جيشاً لمحاربة بغداد، ولكن الفشل كان حليفاً لتلك الحملة، فما أن انطلقت الحملة حتى اضطربت الأمور ببلاده[5]، واتخذ الناصر جملة من الاستعدادت لحماية بغداد " ففرق السلاح وصرف الأموال، وأقام المتاريس حولها[6]، وكانت الظروف المناخية قد لعبت دوراً في إفشال الهجوم، فهبّت عواصف ثلجية استمرت ثلاثة أيام أدت إلى هلاك معظم دوابه وتعطيل حركة جيشه، فاضطر إلى الرجوع[7].

---

(1) غزنة هي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند في طريق فيه خيرات واسعة. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص201.

(2) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ/1347م) العبر في خبر من غبر ط1، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت 1985 ص105.

(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص19.

(4) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص582.

(5) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص10.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص361.

(7) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص582.

إن الناصر يكون بهذا قد استكمل جهود المقتفي لأمر الله لاستقلال الخلافة العباسية، وإعادة وحدة العراق كما كان في السابق، فأصبحت أملاك الخلافة في عهده تمتد من تكريت في الشمال إلى عبدان على الخليج العربي في الجنوب، ومن الري وأصفهان في الشرق إلى حديثة عانة في الغرب، ويقول ابن واصل: " وفي أيام الناصر لدين الله عظمت حشمة الخلافة جداً وقوي شأنها، واستولى مع العراق على اقليم خوزستان وغيرها من الأطراف، وملك همذان وأصفهان" (1).

ومن الضروري القول أن هذه التهم التي أوردها ابن الأثير لم ترد في المصادر المعاصرة والقريبة من الحدث، أمثال ابن الدبيثي وابن النجار وأبو شامة وابن شداد وسبط بن الجوزي وابن الساعي والصفدي والكتبي، حتى أن المؤرخ المعروف بالنسوي وهو مؤرخ الدولة الخوارزمية لم يورد هذه الرواية، مما يؤكد براءة الناصر من هذه التهم، كما أن رواية ابن الأثير بدأت بقوله: " وإن كان"، وينسب ابن الأثير الرواية إلى العجم (الخوارزميين)، فكيف يمكننا الوثوق برواية كان مصدرها طرفاً معادياً للدولة العباسية، وزيادةً على ذلك فإن حكام الخوارزميين دأبوا على اتهام الخلافة العباسية بمعاداتهم، فحاول السلطان علاء الدين محمد كسب الرأي العام وإثارته على الخلافة، فقام بدعاية كبيرة للتشهير بها، عندما أعلن أنه عثر على وثيقة في غزنة تثبت تحريض الخليفة للغوريين على مهاجمته، واتخذ من ذلك

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج3، ص170.

ذريعة للتشكيك في شرعية حكم الخليفة العباسي، بل إنه قطع الخطبة للخليفة العباسي[1]، ونصب خليفةً علوي من ترمذ[2]، راغباً في كسب ولاء الشيعة في المشرق والعراق.

كما أن علاقة علاء الدين محمد خوارزم شاه كانت قائمة بالمغول من قبل أن يتوجه إلى بغداد، حيث كان قد عقد معهم حلفاً للتخلص من غارات قبائل الخطا على بلاده، وبعد أن تم القضاء على دولة الخطا والتي كانت تمثل حاجزاً بينه وبين المغول، صار اللقاء مع المغول أمراً محتماً، وخصوصاً إذا علمنا أن الغزو المغولي للعالم الإسلامي كان غزواً شاملاً، ولم يكن المغول بحاجة إلى تحريض الخليفة ليغيروا على بلاده أو يغزوها، فالبيئة القاسية التي عاشوها كانت دافعةً لهم إلى الغزو التماساً للرزق ومهرباً من قسوة الحياة، فهم مستعدون لإزالة أي قوة تقف في وجوههم سواء كانوا خوارزميين أم عباسيين[3].

---

(1) القزاز، محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة القضاء، النجف، العراق 1971 ص227.

(2) ترمذ مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي، متصلة العمل بالصغانيان، ولها قهندز وربض، يحيط بها سور، وأسواقها مفروشة بالآجر. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص26.

(3) القزاز، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، ص232.

الفصل الثالث

علاقات الخليفة الناصر لدين الله مع الدول والإمارات المستقلة

تتميز الفترة الأخيرة من العصر العباسي بظهور النزعات الاقليمية والاستقلالية، فأخذت تظهر الإمارات والدويلات المستقلة في بلدان الخلافة الشرقية، ولكن بالرغم من ميل البعض إلى الاستقلال إلا أنهم كانوا دائماً يحسون بالحاجة إلى الاعتراف والمباركة من الخليفة في بغداد، وهذي يُعطيهم الصفة الشرعية أمام رعاياهم في تلك البلاد.

المبحث الأول : العلاقات مع الخوارزميين

نستطيع أن نتلمس أولى العلاقات بين الخليفة الناصر الممثل للدولة العباسية وبين الخوارزميين زمن السلطان علاء الدين تكش، فقد كانت العلاقة بينهما علاقة المتبوع بالتابع، وقامت على التعاون المتبادل، ثم تطورت إلى نزاع وخصام، فقد كانت الخلافة تسعى إلى القضاء على بقية سلاجقة العراق الذين بدا الضعف فيهم واضحاً، ومن جهة أخرى كان السلاجقة يسعون إلى توسيع نطاق نفوذهم بالاستيلاء على ممتلكات السلاجقة، واسترداد بعض ما أخذ منهم أثناء حروبهم مع الخطا والغوريين، لذا فقد التقت مصلحة الطرفين، الخلافة وشاهات الخوارزمية على ضرورة التخلص من السلطان طغرل بن ألب أرسلان شاه آخر سلاطين سلاجقة العراق، الذي يبدو أنه حاول السيطرة على الخلافة والدولة الخوارزمية عل السواء، وعليه فإن خوارزم شاه لم يتردد في تلبية دعوة الناصر للخلاص من طغرل، إذ أن الخليفة أغراه بإقطاع بعض البلاد إن أنجز هذا الأمر، وقد وفى الناصر له بما وعد حين تمكن علاء الدين تكش من قتل طغرل، وإرسال رأسه إلى بغداد حيث الخليفة الناصر[1].

---

(1) الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، ص245-247.

وبعد مقتل طغرل استولى علاء الدين خوارزم شاه على بلاد طغرل همــذان وغيرهــا، وتولى الحكم رسمياً من قبل الخلافة، وأقطع مماليكه واستعان بابن البهلــوان، ورجــع إلـــى خوارزم، وبهذا تجاورت أملاك العباسيين والخوارزميين، مما حفّز الاحتكاك بينهما[1].

وما إن حاولت الدولة الخوارزمية التوسع حتى جهّز الناصر ســنة 591 هـــ /1194م جيشين، أحدهما بقيادة الوزير ابن القصاب ووجهته خوزستان، والآخر سيف الــدين طغــرل ووجهته أصفهان وما جاورها، أما الجيش الأول فقد استطاع بعد جهد كبير أن يستولي علـــى مدينة تستر حاضرة الإقليم بعد أن عجز أهلها عن الصمود، واسترد غيرها من البلاد والقلاع والحصون، وأجلى مغتصبيها من عمال الخلافة إلى بغداد[2]، ثم سار الوزير إلى ميسان مــن أعمال خوزستان، فوصل إليه قتلغ إينانج بن البهلوان، صاحب البلاد، منهزماً من خوارزم شاه علاء الدين تكش عند زنجان، فأكرمه وزير الخليفة وأحسن إليه، فأعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج إليه، وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء، ورحلوا إلى كرمان شـــاه، ومنها إلى همذان حيث تمكنوا من طرد جيش خوارزم شاه، الذي كان عليه مقدماً " ميــاجق"، وعليهم كلهم يونس خان بن خوارزم شاه، وكانت النتيجة هروب هؤلاء من وجه جيش الخلافة إلى الري[3].

أما الجيش الثاني المتوجه لأصفهان فإنه وجد الأمور مناسبةً أكثر، إذ كان أهلها يكرهون الخوارزمية، ويتطلعون إلى الخلاص من سيطرتهم، لذلك بعث رئيس الشافعية بها صدر الدين الخجندي إلى ديوان الخلافة ببغداد يعرض تسليم البلد إلى من يصل إليــه مــن دار الخلافــة،

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج3، ص136.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص131.

(3) الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (ت599 هـ /1203م) راحة الصدور وآية السرور فـــي تـــاريخ الدولة السلجوقية، الإدارة العامة للثقافة، مصر 1960 ص522-523. محمد، عودة الــروح للخلافــة الإسلامية، ص108.

وكان الخجندي ذو نفوذ ومطاع من جميع أهل أصفهان، لذلك لم يتـردد الخليفـة فـي إنفـاذ الجيش، الذي لم يلق مقاومة حين وصوله إلى ظاهر أصفهان، إذ ما كاد الجيش الخـوارزمي يعلم بوصوله حتى ترك أصفهان ورجع لخراسان، فدخلها جيش الناصر وملكها، وخُطب لـه فيها[1].

ونزل الوزير القصاب في سنة 592 هـ /1195م في قصر خوارزم شاه في همذان بعد أن أقام بظاهرها ثلاثة أشهر، وعيّن سيف الدين طغرل والياً عليها، وبعـث بـالأمير سـنقر الطويل مع ألفي رجل إلى أصفهان، لقهر صدر الدين الخجندي، الذي انتهز دعم الخلافـة لـه فاستولى على أصفهان، وتمكن سنقر في النهاية من أن يقتله[2]، ثم لم يلبث الوزير حتى تـوفي في شعبان من سنة 592 هـ /1195م، فهو حين كان أقبل من الري كان مريضاً[3].

وقبيل وفاة ابن القصاب، وإثر انتصاراته على جيوش الدولة الخوارزمية بعث خـوارزم شاه تكش رسوله إلى همذان ينكر عليه أخذ البلاد من عساكره، ويدعوه إلـى إرجاعهـا لـه، وإقرار الصلح بين الطرفين، إلا أن ابن القصاب رفض تلبية رغبة الخوارزميين، وعند ذلـك سار جيش خوارزم شاه إلى همذان، وفي هذه الأثناء توفي ابن القصاب[4]، وقد أخفى جـيش بغداد خبر وفاته واستعد للقتال، وقتل من الفريقين عدد كبيـر، ولكـن النصـر كـان حليفـاً للخوارزميين، وتمكنوا من الاستيلاء على الري ثم همذان، وقتل وأسر عدد غيـر قليـل مـن

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص136.

(2) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص258-259.

(3) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص258-259. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص110.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص143.

أفراد جيش الخلافة[1]، على أن خوارزم شاه تكش أراد أن يبرهن للخليفة أنه ما زال تابعاً لــه رغم كل ما حدث، فأطلق سراح أسرى جيش الخلافة، وأنعم عليهم وقال لهم : إني أنا أيضــاً عبد لأمير المؤمنين، فإذا أردتم أن تقيموا هنا فلتبقوا، وإلا فلتذهبوا[2]، ولكن الناصــر رفــض هذا التقرب فكتب سنة 593 هـ /1196م إلى الأمير أبي الهيجاء السمين وهو أحــد الأمــراء المعدودين يأمره بالسير إلى همذان، وطرد من بها من الخــوارزميين، ونجــح الســمين فــي محاصرة الملك أوزبك بن البهلوان والاستيلاء على همذان[3].

وبالرغم من بعض الانتصارات التي حققها خوارزم شاه تكش واستيلائه علــى بعــض البلدان لاحقاً، إلا أن الناصر لم يقبل أن يضع نفسه تحت رحمة الخوارزميين، خشية تمــاديهم، فأوعز إلى بعض الأمراء بمهاجمة ما اغتصبه خوارزم شاه تكش من بلدان الخلافة الشــرقية، فهاجم الملك أوزبك والأمير كوكجا وناصر الدين أغوش زنجان، بينما أغــار ميــاجق علــى همذان، وأورد الراوندي ما قاله الخليفة للأمير مياجق: " إن خوارزم شاه ليس إلا حاكماً مــن قبلنا، أما شمس الدين مياجق فهو نائب أمير المؤمنين على الإطلاق وهو محافظ الثغور وملك الآفاق، ثم نزل مياجق في موضع قريب من همذان، وراح يستمع لشيوخها يروون له ما كان يجري فيها، ثم وعدهم بإقامة دعائم العدل فيها، ودعاهم إلى معاونته باستمالة قلوب الرعيــة، وأعلن عزمه على امتلاكها[4].

---

(1) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص530. محمــد، عــودة الــروح للخلافة الإسلامية، ص111.

(2) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص531-532.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص144. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص112.

(4) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص550. محمــد، عــودة الــروح للخلافة الإسلامية، ص113.

ثم أرسل الناصر إلى غياث الدين الغوري صاحب غزنة يشكو إليه عدوان خوارزم شاه، ويدعوه لمنعه من ذلك، فلما رجع علاء الدين تكش من همذان إلى خوارزم وصل إليه رسـول غياث الدين الغوري يلومه على ما فعله مع الخليفة الناصر، ويدّده بأخذ بلاده إن هو فعلها مرة أخرى، فلجأ الخوارزميون إلى الخطا يحرّضونهم على الغوريين، ولكن الغوريين أفلحوا في إلحاق هزيمة قاسية بالخطا وبحلفائهم الخوارزميين سنة 594 هـ /1197م[1].

وهكذا فإن علاء الدين تكش خوارزم شاه وجد نفسه مضطراً إلى تغيير علاقته مع الخلافة العباسية، وتغيير هذه السياسة القائمة على العداء، فأصدر منشوراً بحضور أئمة همذان يعترف فيه بسيادة الخلافة على العراق كله، ويعترف كذلك بحكم مياجق حاكم همذان من قبل الخليفة، ويأمر بأن يخضع له جميع الحكّام والقضاة[2].

وهكذا سار الوفاق بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية، وفي سنة 596 هـ /1199م توفي علاء الدين تكش وتولى مكانه ابنه علاء الدين محمد خوارزم شاه، فنجد أنه سار في بداية عهده بسيرة أبيه، حيث كان موادّاً للخلافة، وسارت الرسل بين بغداد وخوارزم برسائل المودة والاحترام، فمثلاً في سنة 602 هـ /1205م وفد إلى بغداد نظام الدين محمد بن عبد الكريم السمعاني رسولاً من علاء الدين محمد خوارزم شاه، وتم استقباله بمزيد من الحفاوة والتكريم، وأذن له بالجلوس بباب بدر من دار الخلافة فجلس للوعظ، وقبول اين الساعي في ذلك: " وأحسن الكلام..... وبالغ في الثناء على البيت العباسي الشريف،

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص153. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص114.
(2) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص551. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص114.

وأكثر من الدعاء للخدمة الشريفة الناصرية"[1]، وردّ الخليفة الناصر على ذلك بأن بعث رسولاً للخوارزميين سنة 605 هـ /1208م عاد محملاً بالهدايا[2]. إلا أن شكل هذه العلاقات الحسنة لم يُكتب له الدوام، لأنه بالدرجة الأولى يتعارض مع سياسة علاء الدين محمد خوارزم شاه القائمة على التوسع والامتداد، وكانت الوجهة الأولى له جهة الشرق حيث دولة الخطا التي ألحقت بهم هزيمة سنة 594 هـ /1197م[3]، وبعد معارك كثيرة كانت سجالاً بين الطرفين، استطاع علاء الدين محمد خوارزم شاه من القضاء نهائياً على دولة الخطا وذلك سنة 606 هـ /1209م وفرض سيطرته منطقة بلاد ما وراء النهر كلها[4].

ثم ذاع صيت علاء الدين محمد خوارزم شاه بسبب هذه الانتصارات وعظم أمره حتى أطاعه القريب والبعيد، فتطلّع إلى الخلافة في بغداد وتلقّب بالسلطان كما كان الأمر مع السلاجقة من قبل، فقرّر قصد العراق والاستيلاء عليها والسيطرة على الأمور في بغداد[5]، فاستولى بداية على بلاد الجبل من العراق العجمي، ثم الري وهمذان وأصفهان وساوة وقزوين وزنجان وأبهر وقم وقاشان، فيكون أخضع العراق للعجمي لسيطرته، وأقطع بعض هذه المناطق للأمراء التابعين له[6]، وأعدّ جيشاً اختلفت الروايات في عدده[7]، وأخذ يرسل للناصر يطلب ميراث السلاجقة، ولأن الناصر كان يدرك تمام الإدراك أنه لا قبل له بمواجهة

(1) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج9، ص167-168. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص116.

(2) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج9، ص162.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص153.

(4) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول" غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية"، ص61-62.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص258. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص117.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص299-300. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص117-118.

(7) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص100.

الخوارزمي فإنه لجأ لسياسة التهديد والوعيد علّها تجدي نفعاً، فأرسل رسالة مع مجير الـدين البغدادي وهو مقيم في همذان، فتلقّاه بكل احترام وتبجيل وكان نص الرسالة كمـا يلـي: " إن ملك أبيك وجدك كان منحة منا، ونحن الآن نسلّمه إليك، فاقنع به كما كـان فيمـا سـبق، ولا تطمع في أكثر منه، وإلا سأكتب إلى الأمصار أنك خارج علي، فينهض الناس في سائر البلاد لغزوك وتراق الدماء"[1]، فرد عليه الخوارزمي قائلاً: " الحكم لأمير المؤمنين، ومـا أنـا إلا شحنة من قبله"، ثم طلب أن يتعطف عليه ويعطيه ولاية خوزستان، لأن أتباعـه كثيـرون لا يكفيهم القليل من الخبز الذي تغلّه بلاده اليسيرة[2]، ثـم تتابعـت الرسـل بعـد ذلـك وكـان الخوارزمي يكرّر طلب ما كان للسلاجقة، والخليفة الناصر مصر على رأيه بـالرفض وعـدم القبول، وبعث له برسالة مع شهاب الدين السهروردي، لعله يقنع الخوارزمي ويثنيه عن القدوم لبغداد، ويبصّره بعواقب فعلته، فقابله الخوارزمي بمزيد من الاحترام تمييزاً لـه عـن سـائر الرسائل الواردة عليه من الديوان[3]، وهذا ما يؤيده ابن خلدون: " فأكبر السلطان مقدمه وقـام لتلقيه وأول ما بدأ به الكلام على حديث الخطبة ببغداد وجلس على ركبتيه لاسـتماعه...." [4]،

---

(1) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص534.

(2) الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص534. محمـد، عـودة الـروح للخلافة الإسلامية، ص118.

(3) النسوي، محمد بن أحمد (ت639 هـ /1241م) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مصر 1953 ص51.

(4) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت808 هـ /1405م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، ط2، ج5، تحقيق خليـل شـحادة، دار الفكـر، بيروت، 1988 ص128.

ومع ذلك انتهت هذه المقابلة دون أن يتوصل الطرفان لاتفاق، ورجع السهروردي إلى بغـــداد والوحشة قائمة على ساقها[1].

عندئذ بحث الخليفة الناصر عن حليف له، فتحالف مـــع جـــلال الـــدين حســـن زعـــيم الاسماعيلية لاستخلاص العراق العجمي من الخوارزمية، وأوعز إلى الباطنية بقتـــل إغلمـــش نائب الخوارزمية في العراق، فقتلوه عند لقائه حجاج بيت الله الحرام سنة 612 هـ /1215م، وقام بتحريض بعض الأمراء عليه، ومع ذلك لم تجد هذه الأمور نفعاً[2]، وبعد هـــذه الأحـــداث قرّر الخوارزمي سنة 614 هـ /1217م على المسير إلى بغداد ودخولها قسراً، وكـــان أمـــاه طليعة يصل عددها ما يقرب من خمسة عشر ألف جندي، فلما رأى الناصر إصـــراره علـــى الحرب أعلن النفير العام في بغداد، وفرّق الأموال، ووزّع السلاح على الناس وأخـــذ يســـتعد للقتال[3].

إلا أن القدرة الإلهية تحول دون أن يحقق الخوارزمي مراده، فما أن ابتعد عـــن همـــذان مسيرة يومين، ووصل إلى عقبة سدأباد في طريق بغداد حتى نزلت علـــى جيشـــه عواصـــف ثلجية عاتية، بلغ من شدتها قسوةً أنه لم يسمع بمثلها أحد[4]، وترتب على ذلك أن هلك الكثيـــر من الرجال والدواب، ودب الفساد في من بقي من الجيش[5].

---

1) أبو شامة، الذيل علـــى الروضـــتين، ص100-101. محمـــد، عـــودة الـــروح للخلافـــة الإســـلامية، ص119-120.

(2) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص53-58. حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول" غـــزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية"، ص43.

3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص100-101. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبـــار ملـــوك مصر والقاهرة، ج6، ص219.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص300.

(5) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص64. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص124.

ويروي سبط ابن الجوزي أن الوزير مؤيد الدين القمي كان له دور في تأليب قسم كبير من جيش الخوارزمي وإفساده عليه، فقد اتصل بسبعين ألفاً من الخطا ممن كانوا مع الجيش ووعدهم بالبلاد إن هم قتلوا خوارزم شاه، أو إن تمكنوا من خذلانه أو منعه من قصد بغداد، وأرسل لهم الأموال والخيول والخلع بشكل سري، " فكان ذلك سبباً لوهنه"[1]، ونتيجة هذه الأحداث التي حلّت بالجيش قرر علاء الدين محمد خوارزم شاه العودة بسرعة إلى خراسان، ولكن في طريق الانسحاب هاجمهم بنو ترجم الأتراك، وبنو هكار الأكراد، فتخطفوهم، فلم يرجع منهم إلى خوارزم شاه إلا اليسير[2]، ومن اللطيف الإشارة إلى تفسير ابن الأثير لهذا الحدث حيث يرى أنه الخلافة محمية بإرادة الله، ومن يقترب منها بسوء فإن عقابه سيحصل فيقول: " وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي لم يقصده أحد بأذى إلا لقيه فعله، وخبث نيته، لا جرم لم يمهل خوارزم شاه هذا حتى جرى له ما نذكره مما لم يسمع بمثله في الدنيا قديماً ولا حديثاً" [3].

وبغض النظر عن الأسباب التي أدت لهزيمة علاء الدين محمد خوارزم شاه فقد عاد إلى خراسان أواخر سنة 614 هـ /1217م وحين وصل لنيسابور أمر بقطع الخطبة للناصر وقال أن الخليفة قد مات[4]، كما قطع خطبته في مدينة مرو سنة 615 هـ /1218م، وفعل الأمر نفسه في بلخ وبخارى وسرخس وجميع بلاد ما وراء النهر، أما خوارزم وسمرقند وهراة فإن

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص598-599. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص124.

2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص300. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص125.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص301. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص125.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص300.

خطبة الناصر ظلّت قائمة بها لأن أهل هذه البلاد كانوا لا يلتزمون بشيء " إن أحبوا خطبــوا، وإن أرادوا قطعوا"[1].

وقبل أن ننهي هذا المبحث فاتني أن أذكر أن علاء الدين محمد خوارزم شاه كــان قــد اعتنق المذهب الشيعي، وكان يرغب في إقامة خلافة علوية مكان الخلافة العباسية، وأصــدر فتوى بإبطال خلافة الناصر، ونصّب علاء الملك الترمذي خليفةً للمسلمين، وخطب لــه علــى منابر الدولة، وسكّ النقود باسمه، ثم أخذه معه لبغداد لتنصيبه فيها[2].

ثم يتولى حكم الدولة الخوارزمية غياث الدين بن علاء الدين، وكانت سياسته نفس سياسة أبيه تقوم على الأمل بإخضاع بغداد، وللحد من تصرفات السلطان الخوارزمي الجديــد عمــل الناصر على تحريض خاله الأمير إيغان طائسي الذي كان من كبار الأمراء، وكــان ذو رأي مسموع عند ابن اخته، فأقطعه الناصر البلاد سرّاً وعدّه من أوليائه، وأمــره بــالخروج علــى طاعة غياث الدين، ولكن الأخير استطاع هزيمة هؤلاء المتمردين[3].

وفي سنة 621 هــ /1224م يصل جلال الدين منكبرتي للحكم، ويســتمر علــى نفــس سياسة العداء التي اختطّها من سبقوه، فعزم على قصد بغداد، لأن الناصر لــم يجبــه بإقامــة الخطبة، فوصل لمدينة تستر وضيّق عليها، وبعد حصار دام شهرين سار فجأةً متوجهــاً إلــى بغداد، عندها أسرع جيش الخلافة لإعداد العدة، فنصب المجانيق على الأسوار، ووزّع السلاح على الناس، وفتحت الأهراء، وأنفق الخليفة ألف ألف دينار على تجهيز الجيش[4]، وقد حــاول جلال الدين أن يعقد حلفاً مع الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، فكتب إليه قائلاً: " تحضــر

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص301. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص126.
(2) براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص557.
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص380.
(4) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص634.

أنت ومن عاهدني فنتفق حتى نقصد الخليفة، فإنه كان السبب في هلاك المسلمين، وفى هــلاك أبي، وفى مجيء الكفار إلى البلاد؛ ووجدنا كتبه إلى الخطا وتواقيعــه لهــم بــالبلاد والخلــع والخيل"، ولكن المعظم رفض ذلك فبعث إليه: " أنا معك على كل أحد، إلا على الخليفــة فإنــه إمام المسلمين"[1].

وواصل جلال الدين سيره إلى بغداد حتى وصل إلى دقوقا، وحاصرها فصعد الأهــالي إلى الأسوار ورموه منها، مما دفعه لتشديد الحصار عليها، وأخضعها عنوةً وأباحهــا لجنــوده يعيثون فيها فساداً ويقتلون من ظل من أهلها، وهاجمت سرية خوارزمية مدينة تكريت، ولكنها فشلت في تحقيق النجاح، ورجع جلال الدين دون تحقيق أهدافه[2].

وهكذا رجع الخوارزمي دون تحقيق أهدافه، وكان رجوعه في أواخر خلافة الناصر سنة 622 هــ /1225م وهي السنة التي توفي فيها الناصر.

المبحث الثاني : العلاقات مع الأتابكة

إن من أهم التقاليد المتّبعة في العلاقة بين الخلافة العباسية وأتابكيات الجزيرة والموصــل في عهد الناصر أن يبعث كل أتابك جديد رسله وكتبه يلتمس الإقرار والتعيين مــن الخلافــة، وأيضاً الخلع والتشريف[3]، ففي سنة 576 هــ /1180م توفي سيف الدين غازي بــن قطــب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، وخلفه في حكم الأتابكية أخوه المولى الســعيد عــز الدين مسعود، فبعث أتابكه ومدّبر دولته الأمير مجاهد الدين قايماز فخر الدين أبا شــجاع بــن

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص144. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملــوك مصــر والقاهرة، ج6، ص261.

(2) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص634. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص261.

(3) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني(ت 630هــ/1232م) رسائل ابن الأثيــر، بيــروت 1959 ص242-243.

الدهّان البغدادي رسولاً إلى صلاح الدين يطلب إقرار عز الدين، ولم يستطع صلاح الدين ذلك إلا بعد أن أعلم الناصر بالأمر، وأذن بالموافقة على تقليد السلطنة للسعيد عز الدين[1].

وعندما توفي نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل سنة 607 هـ /1210م وعهد بالملك من بعده لابنه القاهر عز الدين مسعود، على أن يكون بدر الدين لؤلؤ أتابكاً له وقيّماً على شؤون دولته[2]، جاء الكتاب يستأذن الناصر في ذلك، " أدام الله سلطان الديوان العزيز النبوي، وأوطأه معاقد الملك وتيجانه..... وإذا توفي ولي من أولياء الدولة فمن السنة أن يعزى بفقده، ويستخرج إذنها في سليلة القائم من بعده .... وهذا الأمر الذي تقمصه العبد لا يؤيه إلا بتقليد يأوي إلى ركنه ويصدر عنه إذنه...... وإذا ضم إليه لباس الخلعة الشريفة جاء الإنعام وهو يثني مثنى وحصل الفوز منه بالحسنيين"[3].

وفي سنة 615 هـ /1218م توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه وتولى مكانه في حكم أتابكية الموصل ابنه نور الدين أرسلان شاه وأن يكون أتابكه بدر الدين لؤلؤ، وبعد أن أكمل بدر الدين اجراءات تنصيب نور الدين بعث للخليفة الناصر يطلب التقليد كما هي العادة، فأجابه الخليفة إلى ما طلب[4].

من ناحية أخرى نجد بعض الأتابكيات كانت تستنجد بالناصر، فعندما زحف صلاح الدين الأيوبي على الموصل سنة 578 هـ /1182م وضايقها أشد مضايقة، كتب صاحبها عز الدين مسعود ونائبه مجاهد الدين قيماز يطلبان الحماية من الخليفة الناصر، وعليه لم يتردد الخليفة الناصر في إنفاذ صدر الدين شيخ الشيوخ، وخاصه شهاب الدين بشير الخادم ومجموعة من

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص43-44. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص137.
(2) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص546.
(3) ابن الأثير، رسائل ابن الأثير، ص242-244. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص138.
(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص314. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص138-139.

خواص ديوان الخلافة، لحل هذا الإشكال، وإجراء الصلح بين الطرفين المتخاصمين، كما أوعزت الخلافة إلى مظفر الدين قزل أرسلان صاحب أذربيجان بأن يستغل مكانته لدى صلاح الدين ويرسل له متوسّطاً في الأمر، وقد حرصت الخلافة بكل ما أمكنت أن ترفع هذا الحصار، فاستجاب صلاح الدين لشيخ الشيوخ المرسل من قبل الخلافة، وقال صلاح الدين: " هذه أشهر شراف وقد عزمنا على الرحيل ونهب لوصولك الموصل"[1].

ولما علم الأتابك عز الدين صاحب الموصل ما حققه صلاح الدين من تقدم وانتصارات كان من أهمها السيطرة على آمد وحلب، خاف على نفسه وبلاده، فبعث إلى ديوان الخلافة يطلب إرسال شيخ الشيوخ وبشير الخادم للتوسط من جديد لدى صلاح الدين، وبالفعل جاء الوفد إلى صلاح الدين وهو في دمشق سنة 579 هـ /1183م فأحسن استقبالهم، ولكن المفاوضات لم تثمر عن شيء[2]، وبينما هم في طريق العودة عدل صلاح الدين عن رأيه وبعث للوفد عن طريق خواصه موافقته وعدله عن أخذ الموصل، إلا أن ابن الشهرزوري ركبه الغرور حين رأى ميل صلاح الدين للمسالمة، وامتنع عن حضور المجلس، بل إنه أغلظ القول لصلاح الدين، وهدّده بتأليب ملوك العجم عليه، فاستاء صلاح الدين من ذلك، وعزم على قصد الموصل وأخذها[3]، وكذلك في سنة 580 هـ /1184م وقبل أن يغادر صلاح الدين دمشق لقتال الصليبيين بعث الناصر رسوليه السابقين وكلّفهما بالسعي والهمة لتقرير قواعد الصلح بين الطرفين، غير أن هذه السفارة لم تؤد إلى نتيجة أيضاً[4].

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص110. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص139.
(2) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص378.
(3) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص163.
(4) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص200. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص140-141.

وأيضاً قامت الخلافة بحماية أتابكية سنجار عندما قصدها الملك العادل أبو بكر بن أيوب في عساكر الشام ومصر والجزيرة وديار بكر سنة 606 هـ /1209م وضرب عليها حصاراً، فأرسل صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود إلى الخليفة الناصر يستنجد به، ولم يزل العادل يشدّد الحصار على سنجار حتى وصله رسول الخليفة الناصر أستاذ الدار عضد الدين أبو نصر المبارك بن الضحاك، يطلب منه رفع الحصار، ولإقامة الصلح، ولما كان الخليفة الناصر مصرّاً على رأيه، رفع العادل الحصار عن سنجار، وبعد ذلك ارتحل إلى حران(1).

ومن طرف آخر نجد أن الخلافة كانت تنهض لحل ومعالجة مشاكل الأتابكيات بالوسائل السلمية، فحين وقع النزاع بين مظفر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب إربل وعماد الدين زنكي بن أرسلان شاه الأول من جهة، وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وحليفه الملك الأشرف موسى بن الملك العادل صاحب خلاط من جهة ثانية، وذلك بين سنتي 615-617 هـ /1218-1219م بسبب امتلاك بعض القلاع المتنازع عليها مثل (العمادية والهكارية والزوزان)، مما نتج عنه نشوب بين حرب بين هؤلاء الأتابكة، فلما وصلت شكاياتهم إلى ديوان الخلافة بادر الناصر إلى رأب الصدع وإقامة الصلح بين المتحاربين(2)، وكان رسل الخلافة قد نجحوا في إبرام الصلح بين المتخاصمين، ثم توفي بعد ذلك نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل، وتولى مكانه أخوه ناصر الدين محمود، وكان عمره سنة 616 هـ /1219م ما يقرب من ثلاث سنوات، فظهرت مرة أخرى أطماع الأتابك عماد الدين زنكي ومظفر الدين كوكبري في أملاكه، وكانت نتيجة الحرب أن

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص541. ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج9، ص288. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص143.
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص314-317.

استولى عماد الدين زنكي على قلعة الكواشي، وبدر الدين لؤلؤ على تل أعفر، وتملك الأشرف سنجار ثم تركها قاصداً إربل حيث مظفر الدين كوكبري، وعندما وصل قرية السلامية (قريبة من نهر الزاب) وصلته رسل الخلافة ومظفر الدين كوكبري لعقد صلح جديد بين الجميع، يكون مضمونه إعادة جميع القلاع ما عدا العمادية إلى صاحب الموصل، وتظل القلعة المذكورة بيد عماد الدين زنكي أرسلان شاه، وفعلاً تم الصلح على هذا النحو، وعاد الأشرف إلى سنجار سنة 617 هـ /1219م[1].

وقد بلغت العلاقة بين الخلافة والأتابكيات حداً حتى في الأمور الصغيرة البعيدة عن شؤون السياسة والحكم، فقد كتب مظفر الدين كوكبري ذات يوم سنة 605 هـ /1198م إلى الخليفة الناصر يوصيه بأحد العلماء وهو الفخر بن تيمية[2]، ويطلب منه أن يأذن له عند عودته من الحج بالجلوس الوعظ للدرس بباب بدر، وهو أحد أبواب دار الخلافة، وذلك تكريماً له ورفعاً من شأنه، فاستجاب الخليفة الناصر لذلك[3].

لقد ظلت العلاقة بين الخلافة والأتابكيات يسودها الود والاحترام، فقد حصل أن قام مظفر الدين كوكبري باستدراج الأمير حسن بن قفجاق صاحب قلعة الكرخاني، ثم ألقى القبض عليه وتملك بلاده، والأمير حسن كان تابعاً للخليفة الناصر، عندئذ كتب الناصر إلى صلاح الدين الأيوبي سنة 587 هـ /1191م مستنكراً ذلك لأنه كوكبري حليف لصلاح الدين، ويأمر

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص317-320. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص144-145.

(2) محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن تيمية الحراني الحنبلي، مفسر وخطيب وواعظ، كان شيخ حران وخطيبها، مولده ووفاته فيها، من كتبه التفسير الكبير، وتخليص المطلب في تلخيص المذهب، وترغيب القاصد، وبلغة الساغب، وشرح الهداية وديوان الخطب الجمعية، (ت622 هـ /1225م). الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت764 هـ /1362م) الوافي بالوفيات، ج3، تحقيق أحمد الارناؤوط، ، دار إحياء التراث، بيروت، 2000 ص32.

(3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص65. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص145.

أيضاً بإعادة أملاك الأمير حسن[1]، ثم شعر مظفر الدين كوكبري بذنبه، فبعث إلــى الخليفــة الناصر ابن أخيه صحبة الجمال يونس بن بدران المصري رسول الملك العــادل بــن أيــوب صاحب مصر والشام، فشفع رسول العادل في كوكبري لدى مؤيد الــدين بــن القمــي نائــب الوزارة، فقبل عذره، وأجيب سؤله فيه، ووقع الرضا عنه[2].

ولما جاء المغول وعلمت الخلافة بمسيرهم إلى أتابكية إربل ســنة 618 هـــ /1221م، أوفد الناصر رسله إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ومظفر الدين كوكبري صاحب إربل، وإلى الملك الأشرف موسى صاحب خلاط، يطلب منهم الحضور بجندهم إلــى دقوقــا، لكــي يجتمعون مع جيشه للدفاع، وأوكل مهمة القيادة الرئيسة للجيــوش لمظفــر الــدين كــوكبري، وأمدّهم بما تيسّر له من الجيوش بقيادة مملوكه قشتمر، ويبدو أن اجتماع هــذه الجيــوش قــد أعطاها هيبةَ كبيرة، فأثارت الرعب والخوف في قلوب المغول، فانســحبوا دون أن يحققــوا أهدافهم[3].

وهكذا نجد أن العلاقة بين الخلافة والأتابكيات ظل يسودها الــود والاحتــرام المتبــادل، وتلبية النداء من كلا الطرفين، فعندما هاجم الملك الأشرف موسى بغداد، أسرع مظفــر الــدين كوكبري مؤيداً للخليفة الناصر، وسلّمه مفاتيح قلعة إربل وقلاعها في موكــب مهيــب، وردّت الخلافة على هذا الولاء بما يستحقه، فخلعت عليه خلع السلطنة، وأعادته إلى أربــل مكرّمــاً، فزاد مظفر الدين على ذلك بأن قطع الخطبة للأيوبيين وقصرها علــى الخليفــة العباســي[4]،

---

(1) ابن شداد، يوسف بن رافع (ت632 هـ /1234م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مصر 1900 ص198.

(2) ابن الساعي، الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، ج9، ص287-288. محمد، عــودة الروح للخلافة الإسلامية، ص146.

(3) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص569.

(4) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص568.

ووضع وصية بأن تكون أتابكية إربل للخليفة العباسي بعد وفاته، وفعلاً هذا مـــا جـــرى ســـنة 630ه/1232م عندما توفى حيث أصبحت من الأعمال التابعـــة للخلافـــة العباســـية، وكـــان المستنصر هو الخليفة آنذاك(1).

المبحث الثالث: العلاقات مع الأيوبيين

حرصت الخلافة العباسة على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع صلاح الدين، وعملـــت علـــى ترسيخها وتقويتها، وفي ذات الوقت عملت على الحيلولة دون اتساع نفوذه في بلادها، ووجّـــه الناصر اهتمامه على استعادة سلطانه على البلاد التي انسلخت عنه.

لما تولى الناصر الخلافة سنة 575 هـ /1189م بعث رسله إلى صلاح الـــدين، فبـــايع وأقام الدعوة له في جميع ما تحت يده من البلاد والثغور والشام ومصر، وأرسل كتبـــه يعبـــر فيها عن رغبته الأكيدة والصادقة في خدمة الخلافة العباسية، وهذا نص كتابه " والخادم – ولله الحمد– يعدد سوابق في الإسلام، والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم؛ لأنه والـــى ثـــم وارى، ولا آخرية طغرلبك؛ لأنه نصر ثم حجر، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها، وأساغ الغصة التي أذخر الله للإساغة في سيفه ماءها، فرجل الأسماء الكاذبة الراكبـــة علـــى المنابر، وأعز بتأييد إبراهيم فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الطاهر"(2).

وكان صلاح الدين لا يتصرف في شأن من الشؤون دون الرجوع إلى الخليفـــة وأخـــذ موافقته، فمثلاً في سنة 576 هـ /1180م حين توفي سيف الدين غازي صـــاحب الموصـــل وأجلس أخاه عز الدين مسعود مكانه، وأرسل مجاهد الدين قيماز أتابكه رســـولاً يطلـــب مـــن

---

(1) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج5، ص323. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص146-147.

(2) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911 هـ /1505م)، تـــاريخ الخلفـــاء، ط1، تحقيـــق حمـــدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، القاهرة 2004 ص320. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص149.

صلاح الدين يقره على ذلك، فرد عليه صلاح الدين بقوله: " ونحن نرى رأينا فيما نعتمده بعد مطالعة الديوان[1] في ذلك"[2]، ثم عجل بإرسال المطالعة للشيخ صدر الدين شيخ الشيوخ أبي القاسم عبد الرحيم[3]، وقد تجاوبت الخلافة مع صلاح الدين فأرسلت إليه صدر الدين شيخ الشيوخ أبي القاسم عبد الرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخادم الخاص إلى دمشق في شهر رجب بعد أيام من قدوم السلطان ومعه التفويض والتقليد والتشريف وكان وصوله إلى دمشق كيوم عيد فتلقاه السلطان بالتعظيم والتبجيل وترجل له وأبدى الخضوع، وقبّل الأرض عند إبلاغه سلام الناصر عليه، واحتفى بخلع الخلافة وتشريفاتها أيما احتفاء، ثم بعث الخليفة رسالة لصلاح الدين مع ضياء الدين الشهرزوري يعبر فيها عن الشكر والامتنان[4].

وفي سنة 587 هـ /1182م بعث صلاح الدين برسالة إلى الناصر يستأذنه فيها بالاستيلاء على حلب، وكانت حجتّه في ذلك أن أتابكة الجزيرة والموصل يسعون في تفريق الكلمة، ويحرّضون الصليبيين والاسماعيليين على قتال المسلمين[5].

وكان صلاح الدين قد أرسل رسالة مطوّلة إلى دار الخلافة يشكو فيها صاحب الموصل عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، ويشرح بدقة متناهية أسباب شكايته، ومنها أن المذكور قد مدّ عين التعدي بالاحتواء على حلب ناقضاً بذلك الأيمان المبرمة " فإن حلب وأعمالها داخلة في ولايتنا دخولا يشهد به المثال وينطق بحقه المنشور العال الموقع له من

---

(1) يقصد ديوان الخلافة العباسية.

(2) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص44.

(3) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص44.

(4) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص51. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص150.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج2، ص110-112. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص151.

مقر العظمة والجلال"[1]، ويطلب من الخلافة أن توقفه عند حده " ولا غنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حده ولا يتجاوز حقه"[2]، ثم يقول بعد ذلك: " فإن أطاع وأناب ورجع عن الخطأ وعاود الصواب وترك الحق لأهله وأخذ الوفاء في سلوك سبله وإلا فما قصدنا إلا أن نقاتله وهو لأمر الخلافة المعظمة مخالف ونحن طائعون والمشار إليه متصامم ونحن سامعون............. وقد طالع الديوان العزيز بطبه مستشفياً ولشرح قصته مستوفياً ولعذره في جميع الأحوال مبلياً ولا غناء عن نظره السامي ليكون للمراد متولياً" [3].

كما أن صلاح الدين كان قد استأذن من الخليفة الناصر في أخذ مدينة آمد قصبة ديار بكر، فأذن له بذلك، وبعث إليه بالخلع والتقاليد بولايتها، فقدم إليها سنة 578 هـ /1182م ولما تيسر له الاستيلاء عليها أرسل إلى الناصر يعلمه بذلك، وأخبره أيضاً بفتح ميافارقين صلحاً، واعترف له أن ذلك تم بفضل التقليد الذي جاء من الخلافة بولايتها، وأن التقليد كان كما المفتاح لها، ثم التمس في رسالته أن تأذن الخلافة له بفتح الموصل وماردين وأرزن وبدليس وغيرها، لأن حكامها اتفقوا على محاربته[4].

ولكن الخلافة لم تستجب لصلاح الدين بالرغم من إلحاح صلاح الدين، وذلك للعلاقة الوطيدة بأتابكيات الجزيرة والموصل ، وظل صلاح الدين مصراً على ذلك، فأرسل رسالة أخرى في طلب التقليد بالموصل، ومما جاء في رسالته: " ولو قبلت " الخلافة" مسألته في تقليد الموصل، لكان قد ولجها ولو بدلحة أدلجها، وأخذها ولو بحصاة نبذها، وهو يتوقع في جواب

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص62.

(2) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص65.

(3) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص65. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص151.

(4) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص136-140. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص152.

هذا الفتح أن يُمد بجيش هو الكلام، ورماح هي الأقلام، ونصر هو وافد الأمر وترشيد هو فك الحجر "[1].

وعندما علم عز الدين مسعود بميول صلاح الدين وطموحه تجاه أتابكية الموصل، لانـــت عريكته ومال إلى الاستعطاف، فطلب من بغداد إرسال شيخ الشيوخ إلى صلاح الدين لإصلاح الحال، وكان صلاح الدين قد عاد من حصار الكرك إلى دمشق سنة 579 هـ /1183م، حين وافاه رسول الخليفة الناصر، صدر الدين شيخ الشيوخ وبدر الخـــادم، وبصـــحبتهما رســـول صاحب الموصل ومفوضه القاضي محيي الدين أبو حامد محمد بن محمـــد الشـــهرزوري[2]، وخلع الخليفة الناصر لصلاح الدين والملك العادل[3]، ولكن هذه الوساطة لـــم تـــنجح، فأنفـــذ صلاح الدين ضياء الدين الشهرزوري إلى بغداد، وبعث معه هدايا ثمينة وتحف ومجـــوهرات، فاستقبله الخليفة بالمزيد من الحفاوة والتكريم، وقبل هديته بموجب رقعة كتـــب فيهـــا الخليفـــة الناصر ما يلي: " وقف على ما أنهاه من حضور رسول صلاح الدين كثر الله في الأولياء مثله وما ذكره من حال نصرته وذلك بنا وبآرائنا وهمتنا وما نفذ فقد شرف بقبوله"[4]، ومـــع ذلـــك ظل صلاح الدين يأمل بالموصل، واستغل ما حصل سنة 580 هـ / 1184م حين أرسل لـــه ابن زين الدين بن علي كوجك مستنجداً، ويخبر أن عساكر الموصل وعساكر قـــزل أرســـلان نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قيماز ونهبوا وأحرقوا، فوجد صلاح الدين أن الفرصـــة قـــد حانت، فتوجه للموصل، وبينما هو في طريقه، جاءه رسول قلج أرسلان بـــن مســـعود حـــاكم

---

(1) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665 هـ /1267م) عيون الروضتين في أخبـــار الدولتين، ط1، ج2، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة بيروت 1997 ص41. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص152-153.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص477.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص67.

(4) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص185.

سلاجقة الروم، يحذره من أن ملوك الشرق كلهم قد اتفقوا على قصده إن لم يعدل عن الموصل وماردين، ولكن صلاح الدين لم يعبأ بهذا التحديد، مضى بطريقه حتى نزل بموضـــع يعــرف بالاسماعيليات قريب من الموصل، لكي يسهل حصار المدينة[1]، وكتب إلى الخليفــة يخبــره بذلك في الرسالة التالية: "...... فإن رسل المواصلة ما زالوا متــرددين وللخديعــة بــالقول والكتب مجددين وهم في أثناء ذلك يراسلون الجوانب ويكاتبون الأجانب ويرتقبــون النوائــب وتذهب بمعاودتهم الأوقات وتحدث دون قصدهم الحادثات فهادن أنطاكية هدنة آذنــت بغبطــة الإسلام وخلص من طال إساره من ذوي الإقدام ورجال الشام ورأى أن المواصلة لا ينزلــون عن المحتمين به ولا يرفعون أيديهم عن المعتصمين بسببه ومنهم صاحب الجزيرة وصــاحب إربل ومن بتكريت والحديثة وغيرها وأنهم لا يقفون في المكر والخديعة عند أمد وأن رســلهم متناوبة إلى كل أحد...." [2]، ويبدو أن الخلافة قد غضت الطرف هذه المــرة عــن اســتنجادا أتابك الموصل[3]، فشدد صلاح الدين ضرب الحصار على الموصل، ثم مرض مرضاً شــديداً اضطره للرحيل إلى حران، عندها جاءته رسل أهل الموصل للصلح، وبالفعل تم الصلح الذي وقَعه عن أهل الموصل بهاء بن شداد وبهاء الدين الربيب، وبموجبه عادت الموصــل ضــمن ولاياته في نطاق التبعية العامة للخليفة الناصر[4].

وهكذا فإن صلاح الدين بقي محافظاً على الولاء للخلافة في بغداد، وكان يحرص علــى طلب التقليد لكل ولاية أو بلد يفتحه، ففي سنة 583 هــ /1187م استولى على حطين وعكا[5]،

(1) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج2، ص166.

(2) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص215.

(3) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص64-65.

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص70-71. محمد، عودة الروح للخلافة الإســلامية، ص154-155.

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص75-79.

أمر العماد الكاتب فكتب رسالة إلى ديوان الخلافة يعلمه بفتحه[1]، وكذلك عندما فتح عكا وارسوف وقيسارية وحيفا ونابلس وبيروت وصيدا وغيرها من الضياع والقرى والحصون والقلاع، بعث كتاباً إلى الخليفة الناصر يعلمه بذلك[2].

وعندما حرّر بيت المقدس رفع عليها وعلى منبر جامعها شارة الخلافة العباسية، وخطب للناصر، وبعث له بالكتب مبشّراً[3]، وعندما حاصر الصليبيون عكا سنة 583 هـ /1187م، ارتأى صلاح الدين أن يحشد لمواجهتهم أكبر جيش ممكن، فقد بعث كتبه ورسله إلى الملوك والأمراء في مصر والشام والعراق وفارس، كما أنه كتب لصاحب المغرب، وحرص على أن يحيط الخلافة بكل دقائق الأمور، وذلك في أوقات متقاربة، وإن رسله لم تنقطع عن الخليفة الناصر، وكان يطمع من وراء ذلك أن يمده الخليفة بجيش للدفاع عن عكا، ولكن الخليفة الناصر لم يستجب لذلك، وأقصى ما استطاع فعله هو أنه أرسل سنة 586 هـ /1190م الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد ومعه حملان من النفط، وحملان من القنا، وتوقيع بعشرين ألف دينار، تُقترض على دار الخلافة من التجار، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الإحراق بالدينار، وقد اعتذر صلاح الدين عن قبول التوقيع، فبعث رسالة للناصر جاء فيها: " كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان وأركب الرسول معه مراراً، وأراه مبارك النزال ومعارك القتال، حتى يشهد بما يشاهد، ويبين له المجتهد والمجاهد"[4].

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص394-400.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص76-80. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص157.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج6، ص496 وما بعدها.

(4) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص149-154. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص157-159.

وعندما وصلت الأنباء بخروج فريدريك بربروسا من ألمانيا سنة 585 هـ /1189م أنه بعث إلى الناصر يظهر استعداده للنزول للخلافة عن بعض ولاياته، مقابل إمــداده بالعســكر، وعندما أخبر قادته بذلك وأنه وعد الخليفة على لسان رسوله الشهرزوري بأن يعطيه شهرزور عابوا عليه هذا الرأي، فرد عليهم بقوله: " الخليفة ملك الخليقة، وهو مالك الحق والحقيقة، فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد فكيف شهرزور"، ومع هذا لم يرسل الخليفة جيشاً بــل أرســل حملين من النفط[1].

وعندما هزم صلاح الدين الصليبيين في بيروت وعسقلان وغزة والداروم وغيرها مــن البلاد سنة 588 هـ /1192م، واضطرهم إلى عقد صلح وهدنة لمدة ثــلاث ســنين وثمانيــة أشهر تبدأ من شعبان سنة 588 هــ /1192م وبدأ بتحصين الثغور، وإكمال أســوار القــدس وخنادقه، فكتب بتفاصيل ذلك إلى الناصر مبيّناً له المزايا التي تعود على الإسلام والمســلمين من ذلك، ولقد بلغ من توثق العلاقة بين صلاح الدين والناصــر أن اتفــق مــع الامبراطــور البيزنطي اسحق انجيلوس الثاني 1185-1195م على إقامة الخطبــة بجــامع القســطنطينية للناصر، وأنفذ إلى هذه المدينة رسولاً من قبله يحبه خطيــب للجــامع، وعــدد مــن القــرّاء والمؤذنين، وأعطاهم منبراً، وجرت أول خطبة في هذا الجامع شهدها جمع كبير من المسلمين والتجار، وخُطب للخليفة الناصر، ثم جاء رسول من الامبراطور البيزنطي إلى صلاح الــدين وهو نازل على مرج عيون يخبره بانتظام الحال وتحقيق الآمال[2].

---

(1) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص150-151. محمد، عودة الــروح للخلافــة الإسلامية، ص160-161.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص115-116. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص161-162.

ومما سبق نلاحظ أن العلاقة ظلت علاقة ودية بين الخلافة العباسية ممثلة بالخليفة الناصر وبين صلاح الدين، إلا أن هذه العلاقة أخذ يشوبها الفتور في السنوات الأخيرة من حياة صلاح الدين، وهناك شواهد تدل على ذلك، فقد كتب صلاح الدين لأول مرة إلى دار الخلافة يشكو من إعراضها عنه ونفورها منه، على الرغم من بلائه في الإسلام، فقال : " فما بال الخادم يشكو إعراضها عنه ومساعيه لديها مشكورة، ويرى حظه من عنايته قاصراً وخدمه على أبوابه مقصورة، أمن عدل القضاء أن يجعل الميزان الثقيل كالميزان الخفيف؟ .... كلا والله، لا يحسن المحسن إلا طلباً للثواب، ولا ترغب همم العاملين إلا إذا توقعت بذل الرغاب، إذا أغلق الديوان العزيز باب الجزاء فقد تعجل من طاعات الأولياء بإغلاق الأبواب"[1].

ومن يتابع مسير الأحداث يجد زيادة النفرة بين الخلافة وصلاح الدين، ولما أحس الناصر بذلك بعث إلى الملك العادل أخي صلاح الدين سنة 588 هـ /1192م يدعوه للقيام بوساطة لعل الأمور تعود إلى مجاريها، والحال إلى سابق عهده ويعده بذلك وعوداً عظيمة، وأنه سيكون له بذلك يد عند الخلافة يستثمرها متى شاء، وكانت الرسالة تطلب إلى العادل أن يستعطف قلب صلاح الدين إلى الخدمة الناصرية، والدخول بينه وبين الديوان العزيز بالخبر، والإنكار عليه في تأخير رسله عن الخليفة، وكان العادل قد أبلغ محتوى الرسالة لصلاح الدين، فاقترح تسيير القاضي الفاضل إلى بغداد " في تقرير قواعد لا تتحرر بين الخلافة وصلاح الدين إلا به"[2]، ولكن صلاح الدين تدارك الأمر وبعث برسالة إلى الخليفة الناصر يعتذر فيها

---

(1) ابن الأثير، رسائل ابن الأثير، ص310-311.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص239-240.

عن تأخير الكتب[1]، وأتبعها بعد ذلك برسالة أخرى تتنصّل فيها عن جميع ما أخذ عليه وما نسبته الخلافة له من فتور في مشاعر الود والولاء تجاهها[2].

ولما توفي صلاح الدين سنة 589 هـ /1193م آلت السلطنة إلى ابنه العزيز عثمان عماد الدين، ودمشق إلى ابنه الملك الأفضل نور الدين علي، وحلب لابنه الظاهر غياث الدين غازي، والكرك والشوبك وما والاها للملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب[3]، وقد سار الجميع على منهج صلاح الدين في موالاة الخلافة، فكان أول عمل قام به الأفضل حين توفي أبوه أن كتب للخلافة يخبرها بذلك، ويرسل لها ميراثه، وأنفذ إليها الهدايا والتحف والخيل والطيب وغيرها من الأشياء الثمينة التي قدّرت بالآلاف[4]، وطلب من الخلافة أن يهبه خلع الولاية والتشريفات، وكان رسوله إلى بغداد حينها هو القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيى الشهرزوري، كما جدّد نقش الدينار والدرهم برسمي الخليفة الناصر وولي عهده، عدة الدنيا والدين أبي نصر محمد[5].

وعندما اجتمع أتابكة الجزيرة والموصل على محاربة الملك الأفضل وأخذ بلاده وبلاد عمه الملك العادل، وأحرز الأيوبيون النصر عليهم، بعث إلى الخليفة الناصر يعلمه بذلك ويعترف له أن هذا النصر الذي حققه الأيوبيون إنما يرجع إلى بركات " استمرار العبيد على طاعة المواقف المقدسة، وبيُمن الائتمار بأوامرها"، وكذلك رأى الملك الأفضل بعد أن تآمر

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج6، ص515.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج13، ص81-90. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص165-166.

(3) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص321.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج3، ص5-8.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج3، ص5-8. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص168.

عليه عمه الملك العادل وأخوه الملك العزيز عثمان وانتزعا منه دمشق وعوّضاه عنها بولاية صرخد، أن يبعث للخليفة الناصر يشتكي على إخوته ويطلب منه التدخل لإعادة أملاكه، وعلى الرغم من أن الخليفة الناصر قد وعده بالنصر إلا أنه اعترف بعمه العادل، وأرسل إليه الخلع والتشريف والتقليد(1).

أما علاقة الناصر بالعادل فقد ظلت ودية يُعبر عنها بتبادل الهدايا والرسائل بين الطرفين حتى توفي سنة 615 هـ /1218م، وعندما توفي أمر الخليفة الناصر احتراماً له بالنداء في بغداد " من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي المجاهد في سبيل الله فليحضر إلى جامع القصر"، وأقيمت عليه فيه صلاة حاشدة حضرها الناس على مراتبهم، كما جرت عليه أيضاً صلاة الغائب في جميع مساجد بغداد(2).

وفي عهد الكامل زادت أواصر المحبة بين الطرفين، فلما حاصر الصليبيون دمياط سنة 615 هـ /1218م بعث الكامل بشيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه رسولاً إلى الخليفة الناصر يستعين به ويستنجد به، مع أن الخليفة لم ينجده لا بمال ولا بعسكر، فأرسل إلى سائر ملوك الأطراف يطلب منهم النجدة(3)، ولكن مع ذلك شاب العلاقة بعض الفتور في السنوات الأخيرة من عهد الناصر، وتجلى ذلك في عدة حوادث، ففي موسم الحج سنة 619 هـ /1222م أمر أطسيس بن الملك الكامل الملقب بالملك المسعود الجنود بعدم رفع علم الخليفة الناصر على جبل عرفات، ورفع علم أبيه الكامل بدلاً منه، وحرّض أصحابه على كسر علم الخليفة إن حاول الركب العراقي رفعه، بل إنه حضّ على النهب، وظل هو

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج3، ص69. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص168-169.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص112-113. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص170-171.

(3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص125.

وأصحابه يضربون الكوسات ويتعرضون للحاج العراقي، حتى أوشكت الشمس على الغـــروب وعندئذ أرسل ابن أبي فراس أباه وكان شيخاً كبيراً يذكّر الملك المسعود بما يجب عليـــه مـــن طاعة الخليفة ولزوم أوامره(1).

أما الملك المعظم فظل على ولائه للخليفة حتى وفاة الخليفـــة ســـنة 622 هــــ /1225م فوقف إلى جانبه عندما هدّده جلال الدين منكبرتي، وبعث إليه: " أنا معك على كـــل أحـــد، إلا على الخليفة فإنه إمام المسلمين"(2).

وكذلك كانت العلاقة طيبة بين الناصر والملك الأشرف موسى بن الملك العادل، ويبـــدو أن الأشرف كان ذا مكانة خاصة لدى الناصر، فكان يخلع عليه الخلع فـــي شـــتى المناســـبات ويطلعه على بعض الأمور الخفية التي لا يبيحها لغيره من الملوك والأمراء، ويبعث بها إليـــه مع أحد التجار البغداديين وهو أبو الفتوح محمد بن علي بن المبارك الجلاجلي(3).

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص132. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص172-173.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص144. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملـــوك مصـــر والقاهرة، ج6، ص261. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص174.

(3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص99. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص174-175.

الفصل الرابع

سياسة الخليفة الناصر لدين الله في المجتمع من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة

المبحث الأول: فئات المجتمع

يتكون المجتمع الإسلامي من طبقتين، تنضوي تحت كل واحدة منهما عدة طبقـــات، أولاً الطبقة الخاصة ويتصدّرها الخليفة العباسي ويعاونه عدد من كبار رجال الدولة، وكان الخليفـــة من بني العباس من أرفع الناس قدراً لهم رواتب ثابته يتفاضونها من بيت المال، وقد ذكر ابـــن جبير الذي زار بغداد سنة 580 هـ /1185م زمن الخليفة الناصر أن جميع العباسيين كـــانوا يسكنون في دار الخلافة ببغداد الشرقية، وكانت لهم مرتبات قائمة[1]، ولا بد من الإشارة إلـــى نقيب العباسيين ونقيب الطالبيين، وهما أيضاً من الطبقة الخاصة " وكل منهمـــا عظـــيم القـــدر جليل الشأن "، ويلي الهاشميين في الدرجة كبار موظفي الدولة ويتقدّمهم أســـتاذ الـــدار الـــذي أوكلت إليه مهمة شؤون دار الخلافة واحتياجاتها المالية، ومما عهد به إليـــه أبـــواب الخليفـــة وديوان الأبنية وخزائن السلاح ورجال الأبواب وما يتعلق بذلك، يذكر ابن جبير في رحلته ما يلي: " وله قيم على جميع الديار العباسية، وأمين على سائر الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية، يعرف بالصاحب مجد الدين استاذ الدار، هـــذا لقبـــه، ويدعى له إثر الدعاء للخليفة، وهو قلما يظهر للعامة اشتغالاً بما هو بسبيله مـــن أمـــور تلـــك الديار وحراستها والتكفل بمغالقها وتفقدها ليلاً ونهاراً " [2].

(1) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص181. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص311.

(2) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص181–182. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص311.

ولا يمكن أن نتغاضى عن قاضي القضاة الذي تكون مهمته بطبيعة الحال حل النزاعات والخصومات، ومما اختص به أيضاً حفظ مال الأيتام حتى يبلغوا سن الرشد[1]، ويقول ابن جبير أن الخليفة لم يكن له وزير بل أشبه بنائب وزير تكون مهمته " يحضر الديوان المحتوي على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الأمور[2] "، ولا شك أن في هذا الأمر دلالة على قوة الخليفة الناصر.

ومن طبقة الخاصة أيضاً الشرابي، وأيضاً صاحب ديوان الزمام وكان ذا مكانة رفيعة في الدولة، فقد وصف بأنه صدر الصدور وخالصة الإمام، وسيد أصحاب الأقلام، وصاحب البلاد، وهو من أقرب المقربين إلى الخليفة، الملازمين لسدّته سفراً وحضراً، وكانت لمكانته هذه تنشر خلفه الأعلام، وتضرب خلفه الطبول، ويخدمه مشرف وخازن وعدد من الموظفين والحجّاب[3].

ولا ننسى حاجب الباب وهو كما يقول ابن الساعي: " صاحب سيف الإمام المتفرد بالسياسة في العوام بالعدل في الأحكام، فمن سرق قطعة ومن انتهك الحرم ردعه، ومن قتل قتله، واقتص للمظلوم ممن ظلمه.................. [4]".

(1) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج4، ص625.

(2) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص181. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص312.

(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص118. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص313.

(4) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص253. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص314.

وهناك عارض الجيش ويُلقى على عاتقه الاهتمام بمصالح الجنود، والتفريق بين الجيد والحسن منهم عند تجنيدهم، ومن أبرز من تولى هذه المهمة في عهد الناصر عارض الجيش ابن الدرانج[1]، ويرد في المصادر دائماً مصطلح " باب الخاصة"[2]، وهذا يؤكد أن مدخل الخاصة كان منفرداً.

ويُذكر أن الناصر لدين الله كان على علاقة جيدة مع العلماء والأدباء والشعراء، ففرض لهم الأعطيات والرواتب، وأوكل للبعض منهم مناصب هامة في الدولة العباسية في زمنه، وكان دؤوباً على حضور المجالس العلمية ومكرماً للعلماء، وقد أشارت المصادر إلى أنه جمع كتاباً في الأحاديث النبويّة سماه (روح العارفين) وروى عن شيوخه بالإجازة[3]، وأجازه للأكابر، فكتب: " أجزنا لهم ما سألوا على شرط الإجازة الصحيحة، وكتب العبد الفقير إلى الله أبو العباس أحمد أمير المؤمنين"[4]، وفي هذا دلالة على أن الناصر كان عالماً ومحباً للعلماء.

أما الطبقة الثانية من المجتمع فهي ما يطلق عليه تسمية العامة، لم تأت المعاجم العربية على معنى واضح ومحدد لكلمة العامة، ولم تزد عن قولها إنها خلاف الخاصة[5]، وبالفعل لا

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص210.

(2) الصابئ، هلال بن المحسن بن إبراهيم (ت448 هـ /1056م) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة الأعيان، الاسكندرية 1990ص16. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج13، ص280.

(3) ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت580 هـ /م1185م) الإنباء في تاريخ الخلفاء، ط1، تحقيق قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة 2001 ص21.

(4) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت748 هـ /1347م) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط2، ج43، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1993 ص29. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص315.

(5) ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص426.

خلاف بأنها الفئة التي تقابل الفئة الحاكمة وتضم التجار والصناع والكسبة ومن لا عمـــل لهــم وتتركز أهداف هذه الفئة على نشر الأمن ورفع الظلم وتأمين الخبز[1].

وتشتمل العامة أيضاً على الخدم والموالي والعبيد وأصحاب الغناء، وكان أغلـــب الخـــدم من الروم والترك والصقالبة والأرمن بمعنى أنهم كانوا من غير العرب، وكـــانوا يُحضـــرون بالعادة من سمرقند وبلاد ما وراء النهر، وقد ساد اتخاذ الرقيق خدماً في هذه الفتـــرة وبعـــض الرقيق كان له أثر في الحياة السياسية[2].

وشملت هذه الطبقة أيضاً أهل الحرف وأرباب الصناعات المختلفة كالحـــدادين والحاكـــة والنجارين والغزّالين والصيادين والطحانين، وأصحاب المهن التجاريـــة الصـــغير كالبقـــالين والعطارين والجزارين والزياتين، وكان أصحاب هذه الطبقة ينحدرون مـــن أصـــو مختلفـــة كالفرس والترك والروم والديلم والروم والنبط والأرمن والشركس والأكراد والكرج، وغيرها من الأصول والمنابت[3].

ومن أهم فئات العامة في هذا العصر فئة العيارون والشطار، العيار، صيغة مبالغة ومن معانيه أن يقال عار الرجل في القوم إذا عاث وعاب، أو إذا ذهب وجاء بعضهم بالسيف[4].

---

(1) ابن دريد، محمد بن الحسن الأزدي (ت321 هــ /933م) جمهرة اللغة، ط1، ج1، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت 1987 ص157.

(2) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج4، ص625-627.

(3) العمري، أكرم ضياء، العامة في أواخر العصر العباسي، ع11، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد 1968 ص3.

(4) الزبيدي، تاج العروس،ج13، ص183.

والعيار هو الرجل الذكي الكثير المجيء والذهاب في الأرض والنشيط في المعاصي [1]، فلفظ العيار هو نعت للرجل الفتن السن النشيط في المعاصي أو في طاعة الله تعالى يضارع الأسد شجاعة وجرأة وجسارة وإقداما [2]، فكلمة عيار تستخدم للمدح حيناً وللذم حيناً آخر.

والشاطر من شطر، ويقال شطر فلان على أهله إذا نزح عنهم وتركهم مراغماً أو مخالفاً [3]، وقول الناس (فلان شاطر) معناه أنه أخذ في نحو غير الاستواء، ولذلك قيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء [4]، فلفظ الشاطر يطلق على الرجل الواسع الحيلة والدهاء والذي بعد أو أبعد عن أهله واقترب من الله بالطاعة أو بعد عنه بالمعصية [5].

وقد أنصفهم الدوري إذ بين أنهم يمثلون طائفة من طبقة العامة ظهرت نتيجة التباين الاقتصادي الطبقي وسوء الوضع المعاشي وأن ثورتهم هي ضد الأسياد والسياسيين وأسياد المال، وأن لهم مبادئ أخلاقية يسيرون عليها مثل العفة وعدم المجون والأمانة والرفق بالفقراء والضعفاء والكرم والصبر الشديد على احتمال الأذى، هذا في حين أن من المؤرخين عجز عن إدراك روح حركتهم وفهما فسموهم لصوصاً منحطين[6].

إن رأي النجار في أن الصعلكة الجاهلية والشطارة والعيارة في العصر الإسلامي متداخلتين متواصلتين باعتبار أن كل منها يسعى لتحقيق فكرة إنسانية ونزعة اشتراكية تحملها حكاياته وأقاصيصه إلى الشعب البسيط الذي راح يرددها في العصر الجاهلي من قبل أن يردد

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص620.

(2) عبد المولى محمد أحمد، العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1986 ص37 .

(3) ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص 48.

(4) الزبيدي، تاج العروس، ج12، ص171.

(5) عبد المولى، العيارون والشطار، ص 31.

(6) الدوري، عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السريان،، بغداد 1945، ص 282- 284 .

حكايات الشطار والعيارين [1]، هو رأي صائب فلا فرق جوهري بين الحركتين يجمعها الثورة على السلطة والمجتمع وحلم بعدالة يحظى بها الجميع.

وحين يأتي الخليفة الناصر لدين الله ت622هـ/1225م يجد أن هؤلاء الفتيان والعيارين قوة فاعلة في المجتمع فيحاول السيطرة عليها وتوجيهها لخدمة الدولة وكان بدء ذلك سنة 578هـ/ 1182م حين لبس سراويل الفتوة، وشرب شراب الفتوة (الماء والملح) للشيخ عبد الجبار[2].

وانتشرت الفتوة بين أهل بغداد بعد أن دخلها الناصر انتشاراً كبيراً، فدخل فيها أعداد كبيرة من الناس الخاص منهم والعام فدخلها العلماء والفقهاء والأعيان والأجناد وعامة الناس [3].

ودخل الكثير من العوام من بغداد في الفتوة فأدى ذلك إلى ظهور نوع من التنافس بين فتيان المحال المختلفة، حيث أخذ فتيان كل محلة يحاولون إظهار شجاعتهم مما أدى إلى وقوع الفتن وأحداث الشغب فيما بينهم مثلما حصل سنة 601 هـ /1204م [4]، وكذلك الشغب الشغب الذي أحدثوه سنة 604 هـ /1207م حيث قتلوا أحد النقباء بباب الشحنة ببغداد مما شكّل صداماً حاداً بينهم وبين السلطة العباسية[5].

---

(1) النجار، حكايات الشطار، ص 115.
(2) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص86.
(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص222–223.
(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص207.
5) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص146–148. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص318.

وإن انتشار الفتن بين أحزاب وجماعات الفتوة، جعل الناصر يقوم بتوحيد هذه الأحـــزاب في جماعة واحدة يرأسها بنفسه، فأهدر الفتوة القديمة وجعل نفسه القبلة لأهل الفتوة والمرجوع إليه في ذلك(1).

وبعد أن وحَد الناصر تنظيمات الفتوة في تنظيم واحد، وجعل نفسه قبلـــة أهـــل الفتـــوة، وربط جميع فتيان بغداد بشخصه أراد أن ينشر الفتوة خارج بغداد، وأن يضم أمراء الأطراف إلى فتوته، ويربطهم بشخصه، وكان الناصر قد توجه هذا التوجه منذ سنة 599 هـ / 1203م حين أرسل سراويل الفتوة إلى الملك العادل وأولاده(2). فكان العادل بذلك أول من ارتبط بفتوة الناصر من أمراء الأطراف، ولكنه الناصر لم يتوسع في إرسال سراويل الفتوة إلى الأطـــراف رغم أن بعض ملوك الأطراف أرسلوا إليه يسألونه أن يشرفهم بلباس الفتوة فقد أرســـل إليـــه الملك الظاهر ت603 هــ /1206م صاحب حلب رسالة يطلب فيها أن يمنحه لباس الفتوة وأن يلحق بالخواص (الذين استجد لهم شعار خصوا باسمه وعرفوا بوسمه وقسم لهم من العنايـــة بسببه ما لم تطمع الحظوظ في قسمه) (3).

ومن العامة أيضاً أهل الذمة من نصارى ويهود وأهل ذمة، ومـــنهم مـــن شـــغل أعلـــى المناصب في الدولة، ومنهم من كان شاعراً أو أديباً، واشتغل البعض منهم بـــالحرف والمهـــن

---

(1) ابن الساعي، تاريخ ابن الساعي، ج9، ص 222.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص51. الملك العادل محمد بن أيوب بن شادي، أخو السلطان صلاح الدين من كبار سلاطين الدولة الأيوبية، كان نائب السلطنة بمصر عن أخيه صلاح الدين أثناء غيبته في الشام، أصبح لاحقاً هو سلطان الدولة الأيوبية (ت615 هــ /1218م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص74.

(3) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني(ت630هــ/1232م) رسائل ابن الأثير، ط1، ج2، تحقيـــق هلال ناجي، دار الكتب، جامعة الموصل 1982 ص134-137.

التجارية الصغيرة، ومنهم الأطباء وأرباب المعايش من عطارين وكسّارين وتجّار، وأصحاب حرف ثمينة كالصياغة والصرافة(1).

قبل أن يتولى الناصر الحكم بمعنى أثناء حكم الخليفة المستضيء لا يوجد إشارة إلى أي خطوة من الخلافة تجاه أهل الذمة، باستثناء موقف واحد فقط اتخذته الخلافة لضبط الأمور وتهدئة العامة، ففي سنة 573 هـ /1178م جاء قوم من أهل المدائن يشكون من يهود المدائن الذي اشتكوا من صوت الأذان بأنه مزعج لهم، فأدى هذا الاحتجاج إلى عداوة بين المسلمين واليهود في المدائن، وجرى نوع من الاقتتال، فجاء المسلمون إلى بغداد طالبين العون والاستغاثة، وعندما لم تتخذ الخلافة أي خطوة تجاه هذا الأمر فإنهم اتجهوا للعامة وطلبوا عونهم، ثم ثار العامة على الجنود وخرجوا إلى الأسواق، ونهبوا دكاكين اليهود، ونهبوا كذلك كنيس اليهود الذي بدار البساسيري، وكسروا الشبابيك ومزّقوا التوراة وأحرقوها، واختفى اليهود وما تجرّأ أحد من اليهود، ولم تهدأ الفتنة إلا بعد إجراءات عدة قام بها الخليفة، حيث أمر بهدم الكنيس الذي بالمدائن وحوّله مسجداً(2)،

في سنة 578 هـ /1183م كان الناصر قد منع استخدام أهل الذمة في دواوين الخلافة، لأنه كان يرى ذلك إذلال للمسلمين، وقال حين أشار عليه أستاذ الدار أن يستخدمهم وأنه من المصلحة أن يستعملهم في الوظائف : " ما إلى هذا سبيل ولو ذهب أصل بيت المال ولا يبقى أحد من الكفار في شيء من الأعمال فأخرج جميع من كان بخدمة الديوان من أهل الكتاب كأولاد النظام وغيرهم من النصارى من أولاد زطينا وابن الأشقر كاتب ديوان العرض...."

---

(1) سرور، محمد جمال الدين، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص172-173.
2) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج40، ص20.

[1]، ولكن الناصر تراجع عن هذا القرار سنة 605 هـ/1208م فأحسن معاملتهم وأوكل إلى دانيال بن العازر بن هبة الله بأن يكون رأس الجالوت[2] عند اليهود، وذلك مكان العازر بن هلال الدارج وكتب له بذلك كتاباً، وأن يكون له النظر فيما كان للدارج، وأن يرعى كل مصالح اليهود، وقد بلغ عدد اليهود سنة 581 هـ/1186م ما يقرب من ستمائة ألف يهودي، ففي بغداد وحدها كان هناك ألف من اليهود[3].

إنه لا توجد أية إشارة خلال النصف قرن التي حكمها الناصر إلى إلزام أهل الذمة بلبس الغيار[4]، بل هناك إشارات تبين ما عليه من خير ورغد في العيش، فهذا أحد الفقهاء وهو ابن فضلان يرفع رسالة إلى الناصر يعبر فيها عن احتجاجه على ما بلغه أهل الذمة في بغداد، فقال: " ما لأهل الذمة من الحرية الزائدة، والجاه القاطع والترقي على رقاب خواص المسلمين.... ثم ليس لهم في بلد من الحرمة والجاه والمكانة ما لهم في مدينة السلام .... ثم ما زالوا على اختلاف الزمان يؤخذون بالصّغار ولبس الغيار الذي أوجبه الشرع عليهم ... فهؤلاء قد حطّ عنهم هذا كله ... وهؤلاء في أكثر البلاد يلزمون بالغيار[5]، وهذا عمرو بن

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص73. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص320.

(2) إن ريش جالوتا هي لفظة آرامية تعني رأس الجالية، وعنها أخذ العرب لفظة رأس الجالوت، ومنذ أن استقر اليهود في العراق بعد سبي بابل كانوا يوكلون أمورهم لعميد يرجعون إليه في أمورهم والذي أصبح يُعرف فيما بعد برئيس الطائفة. التطيلي، بنيامين، رحلة بنيامين التطيلي، ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002 ص.

(3) سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص172. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص320-321.

(4) الغيار هو علامة أهل الذمة كالزنار للمجوس ونحوه. الزبيدي، تاج العروس، ج13، ص289.

(5) ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد بن محمد (ت723ه/1323م) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق بشار عواد ومعروف وعماد عبد السلام رؤوف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997 ص68.

متى يقول في ترجمته للجاثليق يابالاها (586-619 هـ /1190-1222م) بــأن النصــارى كانوا في زمنه يحظون بعيش هنيء[1].

المبحث الثاني: الأعياد والمواسم

اهتم الخليفة الناصر كغيره من الخلفاء العباسيين بهذه المناسبات الاجتماعية والدينيــة، فقد كان يخرج على رأس المحتفلين بعيدي الفطر والأضحى في موكب بمزيــد مــن الأبهــة والعظمة، وذكر لنا الأيوبي في مضمار الحقائق هيئة خروج الخليفة فقال: " فخــرج الخليفــة وعليه جبة بيضاء وطيلسان أبيض وبين يديه أستاذ الدار أبو الفضل ...." [2]، بينما يكمّل لنــا ابن جبير هذا الوصف قائلاً:" لابساً ثوباً أبيض شبه القباء برسوم ذهب فيــه، وعلــى رأســه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للبّــاس ممــا هــو كالفنــك وأشرف....." [3]، وجرت العادة أيضاً أن يخرج الخليفة وبين يديه أستاذ الدار والخــدم وبــين يديه عن يمينه وعن شماله الأمراء وأرباب الدولة عن طريق باب النصر، والمكوث في بستان الأربعين، ريثما يخرج لهم الخليفة، فإذا خرج قام الناس وقبلــوا الأرض وخــدموا ودعــوا، يتقدمهم نائب الوزارة، ويقف العامة على طرفي الطريق لمشاهدة الموكب، وتحيته وهــو فــي الطريق إلى المسجد لأداء الصلاة، وينادون للخليفة : " السلام على نور أمير المؤمنين ونــور الإسلام"[4]، وكانت بغداد تتزيّن بالأقمشة والأعلام ذات الألوان الزاهية، وتدق الأبواب، فــإذا قضيت الصلاة عاد الخليفة فجلس في داره، " واستعرض الموكب بأهله وصغاره والملوك في

---

(1) متى، عمرو، أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل، (د.ن) روما 1996 ص 115.

(2) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص40.

3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص182.

(4) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص40.

أحسن زينة وأبهى حلة وأعظم سكينة فلا يزال الموكب والعساكر تجري كالسيل، في جمع كنجوم الليل، كذلك ثلاثة أيام حتى ينقضي منقضاة..... [1]".

أما الاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم فقد حرص عليه الخلفاء العباسيين منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بعد أن كان ذلك بدعة في نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية الأولى[2]، وكان من أشهر المحتفلين به الأمير مظفر الدين كوكبري[3] صاحب إربل، فكان يصل بلاطه ابتداءً من رأس كل سنة هجرية أي في شهر محرم عدد كبير من الفقهاء والصوفية والعلماء من بغداد والموصل والجزيرة ونصبيبن وبلاد فارس، وفي كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان صورة واضحة عن احتفال مظفر الدين وأبهته والعطاء الذي كان يمنحه " فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم شيئاً كثيراً زائداً عن الوصف وزفها بجميع ما عنده من الطبول والمغاني والملاهي حتى يأتي بها إلى الميدان، ثم يشرعون في نحرها، وينصبون القدور ويطبخون الألوان، المختلفة فإذا كانت ليلة المولد عمل السماعات بعد أن يصلي المغرب في القلعة ثم ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيء كثير، وفي جملتها شمعتان أو أربع من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل، ومن ورائها رجل يسندها وهي مربوطة على ظهر البغل حتى ينتهي إلى الخانقاه، فإذا كان صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه على أيدي الصوفية، على يد كل شخص

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص40. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص331-332.

(2) سرور، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص184.

(3) مظفر الدين كوكبري بن زين الدين أبي الحسن علي بن بكتكين التركماني، صاحب إربل، وولي إربل بعد وفاة أبيه، وأقام بها مدة، وانتقل منها إلى الموصل، ثم دخل الشام، واتصل بالملك الناصر صلاح الدين، فأكرمه كثيراً كان له اشتغال بالحديث (ت630 هـ /1233م). ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/1470م) النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط2، ج6، دار الكتب والوثائق القومية، مصر 2005 ص282.

منهم بقجة[1]، وهو متتابعون كل واحد وراء الآخر، فينزل من ذلك شيء كثير لا أتحقق عدده، ثم ينزل إلى الخانقاه وتجتمع الأعيان والرؤساء وطائفة كبيرة من بيــاض النــاس، وينصــب كرسي للوعاظ، وقد نصب لمظفر الدين برج خشب له شبابيك إلى الموضع الذي فيــه النـــاس والكرسي، وشبابيك أخر للبرج أيضا إلى الميدان، وهو ميدان كبير في غاية الاتساع، ويجتمع فيه الجند ويعرضهم ذلك النهار، وهو تارة ينظر إلى عرض الجند وتارة إلى الناس والوعاظ، ولا يزال كذلك حتى يفرغ الجند من عرضهم، فعند ذلك يقدم السماط في الميــدان للصــعاليك، ويكون سماطاً عاماً فيه من الطعام والخبز شيء كثير لا يحد ولا يوصف، ويمد سماطاً ثانيــاً في الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسي......" [2].

وفي شهر رمضان كان يتم الاحتفال به كذلك، فكان يفتتح بالإنعام على شيوخ الصوفية والعلماء والفقهاء، ويُعطون العطايا والمنح الجزيلة، وتفتح دور المضيف التي بناهــا الناصــر للفقراء والمساكين، وكل ذي حاجة لتناول الطعام عند موعد الافطار، وتشبّه الأمراء والوزراء والأعيان بالخليفة فكانوا يفتحون أبواب قصورهم ليفطر عندهم ذوي الحاجة والفقراء، وكانت ليالي هذا الشهر تزان بالمصابيح وتحفل المساجد فيها بالصــلاة، أمــا عامــة القــوم فكــانوا يسهرونها في لهو وغناء ومرح، إلى أن ترفع قناديل السحور، وهكذا حتى يبقى مــن الشــهر أربع ليال، فحينها يقوم صاحب بيت المال بتقديم خلع الخليفة الناصــر إلــى صــدور الدولــة

(1) البقجة هي صرة كبيرة ملونة من القماش توضع فيها الملابس والخلع ونحوها. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج45، ص404 (هامش).

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيــان، ج4، ص118-119. محمــد، عــودة الــروح للخلافــة الإســلامية، ص333-334.

والملوك وأرباب المراتب ووليه، ويمتد إنعام الخليفة ليشمل العام والخاص " فقل من لا ينـــال منها نصيباً، وفي البعيد من لا يكون منها قريباً"(1).

أما موسم الحج فهو موسم يُحتفل به في كل عام، فيتجمع الحجاج كلهم في بغداد حيــث تفتح لهم دور الضيافة التي بناها الناصر، فإذا آن وقت الخروج للحجاز ضربت علـــى دجلـــة الحياض والروايا، فيخرج الحجاج عندها على اختلاف أجناسهم وأعمارهم وأنـــواعهم، مـــنهم الفتى والفتاة والشيخ والشيخة، وفيهم الماشي على قدميـــه والراكـــب علـــى جـــواده، يقـــول الكازروني: "فأول ما يقدمها القلم وهو محمل الخاص وبعده الكوس، وجنـــد الســـفر والنوبـــة المكية في الأثر، تتهادى بين الحجاب والدعاة والقرّاء في أحسن الصفات، ثم يتوالى كل يـــوم سبيل بعد سبيل ورحل كل جهة محمل جميل، حتى ينتهي خروج الحاج المجتمعين في الفجاج، فيخلع على الأمير ويكلّل، وينعم عليه ثم يُحمل، فيخرج من ساعته ويدخل الحاج في طاعتـــه، فإذا عادوا من الحج احتفل بهم كما حدث في وداعهم، وأفيضت التشـــريفات علـــى الحاشـــية والولاة، وأظهرت كل أسرة الفرح والرضا بسلامة من حج من أفرادها، ورحّبـــت بـــه فـــي عودته......." (2)

المبحث الثالث: مجالس الخليفة الناصر

كان لكل خليفة مجلس يحضره الأدباء والشعراء والندماء، وقـــد شـــرح النـــويري فـــي موسوعته نهاية الأرب في فنون الأدب شروط من يكون نديماً للخليفـــة، إذ ينبغـــي للنـــديم أن يكون كأنما خلق من قلب الملك يتصرّف بشهواته ويتقلّب بإرادته، لا يملّ المعاشرة، ولا يســـأم

(1) الكازروني، علي بن محمد البغدادي (ت697 هـــ /1298م) مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، تحقيق ونشر ميخائيل عواد وكوركيس عواد، وزارة الإرشاد العراقية، بغداد 1962 ص25-26. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص336-337.

(2) الكازروني، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، ص25. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص337-338.

المسامرة؛ إذا انتشى يحفظ، وإذا صحا يبقظ، ويكون كاتما لسرّه، ناشرا لبرّه........ "[1] ولم يكن الخليفة الناصر مختلفاً عن غيره فقد كان له مجالس يحضرها العلماء وكبار رجال دولته، وذكر الأيوبي أنه في سنة 578 هـ /1182م أن الخليفة أمر بإحضار جماعة من الندماء والجلساء إليه كان كثير الميل إليهم وكان في جماعتهم أبو الحسن بن الكرخي فكان كثير الجلوس عنده بحيث لا يفارقه... "[2]، وعقد مجلس غناء ودعا إليه نجاح الشرابي وابن الكرخي ومحمد بن يحيى الفرّاش، وغيرهم من كبار الأمراء والمماليك والجلساء، وأمر بإحضار نويسة المغنية وعائشة السوداء وتبسّط في مجلسه، ومزح مع ابن الكرخي مثنياً على غناء زوجته عائشة السوداء[3]، ومنها كذلك مجلسه الذي عقده سنة 575 هـ / 1180م بعد مرور شهر على وفاة المستضيء بأمر الله، وحضره فخر الدولة بن عبد المطلب أحد كبار العلماء وأستاذ الدار وبهاء الدين صندل الخادم، وكل من كان يختص بديوان الخلافة من أرباب الدولة والأجناد، وتطرقوا في هذا المجلس للحديث عن السياسة والحكم، وفي هذا المجلس أراد الناصر من فخر الدولة بن عبد المطلب أن يكون له وزيراً ومشيراً، ولكن يبدو أنه اعتذر عن ذلك، وتم تنصيب سليمان بن جاووش نائب وزارة[4]، وكانت بعض من هذه المجالس تعقد في منزل الشيخ عبد الجبار الذي كان مقدّماً للفتيان والذي كان منزله أشبه بصومعة تحت بغداد، وهنا يكثر الحديث عن الفتوة ومعرفة الفتيان، ويحضر المجلس الشيخ عقاب صهر عبد الجبار، ومن يحضره الخليفة معه، وكان الناس يمضون إلى الشيخ عبد

---

(1) النويري، شهاب الدين أحمد (ت733 هـ /1232م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط1، ج4، تحقيق مفيد قمحية وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2004 ص126.

(2) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص84.

(3) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص89. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص323.

(4) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص13-14.

الجبار ويزورونه ويخدمونه ويتقربون إليه الأجل الخليفة [1]، وكان الناصر يمنع أن ينشر ما يدور من حديث وأخبار في هذه المجالس فهي بمثابة أسرار دولة، ففي سنة 580 هـ / 1185م كان أبو الحسن بن الكرخي يذكر جميع ما يكون من أحوال تجري في خلوة أو مجلس ويتحدث بذلك في الأسواق فنهاه الناصر عن ذلك[2].

وفي سنة 580 هـ /1185م أيضاً شهد ابن جبير مجلس رضي الدين القزويني[3] فقيه الشافعية، ومدرّس المدرسة النظامية، وفي نفس المدرسة حضر مجلساً آخر لنفس الشيخ، وحضره خاصة بغداد وعامتهم، وأجاب الشيخ في نهاية المجلس على كل الأسئلة التي وجّهت إليه، وظهرت آثار مجالسه ومجالس ابن الجوزي جليّةً واضحة على العامة، فقد اندفع كثير من الناس يبكون، وانتهز العاصون هذه الفرصة فأعلنوا توبتهم، وفرارهم من الذنوب والمعاصي[4].

ومن أشهر المجالس التي عقدت في عهد الناصر مجلس الشيخ أبي الفرج بن الجوزي فقد عقده مرة بأمر من صاحب بيت المال، وحضره بعض الأفاضل كأبي الخير القزويني وعدد من علماء بغداد المشهورين، لمناقشة بعض الأمور الاقتصادية كزكاة بعض الأموال المختلف على زكاتها[5].

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص177. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص323.

(2) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص183. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص324.

(3) أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني رضي الدين القزويني، واعظ، عالم بالحديث، من أهل قزوين مولداً ووفاةً أقام زمناً في بغداد، ودرس بالنظامية، وكان إماماً في فقه الشافعية (ت590 هـ /1194م). قاضي شهبه، تقي الدين بن احمد (ت851 هـ /1447م) طبقات الشافعية، ط1، ج2، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت 1986 ص24.

(4) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص177. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص326-327.

(5) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج18، ص220. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص325.

ويروي ابن جبير أنه حضر عدداً من هذه المجالس، فقد رأى جمال الدين أبي الفضـــائل بن علي الجوزي بباب بدر في ساحة قصور الخليفة، وخص بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم، ويفتح الباب للعامة فيدخلون الى ذلــك الموضع، وقد بسط بالحصر[1]، كما أنه حضر مجالس أخرى في مسجد معــروف الكرخـــي وباب البصرة، وبنهر المعلّى وبجامع القصر وجامع الرصافة وجامع المنصــورة وتربـــة أم الخليفة، وفي غير ذلك من الأماكن المختلفة[2].

وكان الخليفة الناصر قد حضر بعضاً من هذه المجالس، وذلك حين التقى بالشـــيخ عبــد المغيث في إحدى المرات عند قبر الإمام أحمد بن حنبل، وسأله الخليفة : أنت عبــد المغيــث الذي صنف مناقب يزيد؟ فأجاب: معاذ الله أن أقول: إن له مناقب، ولكن من مذهبي: أن الــذي هو خليفة المسلمين إذا طرأ عليه فسق لا يوجب خلعه، فقال له الناصر: أحسنت يـــا حنبلـــي، واستحسن منه هذا الكلام، وأعجبه غاية الإعجاب[3].

وهناك مجلس آخر عقده حسن بن محمد الدرزيني عند باب حجــرة الخليفــة، واســتمع الناصر لحديثه، وقد كان الناس يأتون إليه وتحديداً في ليالي رمضـــان حيــث تنتشـــر هــذه المجالس[4]، والشيخ حسن بن علي بن حمزة الحرّاني المقرئ عقد مجلساً، وحضـــره النـــاس

---

(1) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص177.

(2) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص481-508. محمد، عودة الروح للخلافــة الإسلامية، ص326.

(3) ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت795 هــ /1393م) ذيل طبقات الحنابلة، ط1، ج2، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض 2005 ص350. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص328.

(4) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص480. محمــد، عــودة الــروح للخلافــة الإسلامية، ص328.

على كافة طبقاتهم من نواحي بغداد[1]، وهذا أبو حفص عمر بن محمد البكري الملقب بشـــهاب الدين السهروردي، الفقيه الشافعي المذهب كثير الاجتهاد، كان قد عقد مجلساً بباب بدر، فأرشد ووعظ واستمع إليه خلق كثير[2]، وفي سنة 606 هـ /1209م وفد إلى بغداد القاضـــي نجـــم الدين خليل رسول العادل الأيوبي، فعقد مجلس مناظرة، حضره نائب الوزارة ابـــن أمســـينا، وصار يدلّل على وجوب الزكاة في مال الصبي والمجنون، فاعترض على رأيه الشـــيخ مجـــد الدين أبو علي يحيى بن الربيع مدرّس المدرسة النظامية واحتدم النقاش في المجلس[3].

وفي سنة 600 هـ /1203م قدم إلى بغداد أبو الفتح ابن أبي نصـــر الغزنـــوي رســـول السلطان شهاب الدين الغوري، وطلب من الناصر أن يعقد مجلساً للوعظ بباب بدر، فأذن لـــه، ودُعي الأمراء والأعيان والفقهاء والصوفية لحضوره، فوعظ وأرشد، ودعا للخليفة الناصـــر، وأعلن تبعيّة السلطان شهاب الدين الغوري للخليفة في بغداد، وفي حديثه تطرّق إلى النعم التي أنعمها الله تعالى على أهل بغداد، ومن أهم هذه النعم قربهم من الخليفة، إلى غيـــر ذلـــك مـــن الكلام الحسن[4].

المبحث الرابع: المرافق الاجتماعية

إن أهم ما يُذكر للناصر هو إنشائه لدور الضيافة التي اهتمت بالفقراء والمســـاكين وذوي الحاجة وإطعامهم في شهر رمضان المبارك، وقد أقيمت في عشرين محلة من محـــال بغـــداد الشرقية والغربية، وأوكل لأشخاص ذوي نزاهة وعدل وأمانة للتعهد بها والإشـــراف عليهـــا، وطلب من كل صاحب محلة من محال بغداد أن يسجّل أخبار محلّته، فتم تدوين ما يقرب مـــن

(1) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص526. محمـــد، عـــودة الـــروح للخلافـــة الإسلامية، ص328.

(2) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص145. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص328.

(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص284. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص328.

(4) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص119-120.

خمسمائة شخص، فعمّمت هذه الصدقة على الفقراء والمساكين وانتفعوا بها وتفرّغوا للعبـــادة، وبالتأكيد هذا كان غير ما ينفق علـــى العلمـــاء والفقهـــاء والشـــيوخ والصـــوفية [1]، وفـــي سنة 605 هـ /1208م بنى الناصر داراً أخرى للضيافة، بناها لحجـــاج بيـــت الله الحـــرام، الوافدين على بغداد في طريقهم للحج، ورتّب فيها من كل أنواع الأطعمة والمشارب، وأوعـــز بأن يُعطى كل فقير ديناراً عندما يعزم على السفر، وأن يُكسى ويُعطى ما يحتـــاج إليـــه مـــن مؤونة[2]. ومن أهم المرافق الربط[3] والزوايا[4] والخوانق[5]، وقد بنـــى الناصـــر مـــن هـــذه المؤسسات عدداً كبيراً، وأوقف عليها أوقافاً جزيلة، وكان يفرّق علـــى الفقـــراء والمســـاكين والمنقطعين في سائر الأربطة والزوايا ما يحتاجونه من دقيق ولحم وخبز[6].

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص60. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص340.

(2) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص229–230. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص340.

(3) الرباطات هي المدن التي يرابط فيها المسلمون للجهاد في سبيل الدفاع عن الـــوطن وحمايـــة الـــدعوة الإسلامية في دار الإسلام، وفي العصور الإسلامية المتأخرة، تحولت هذه الكلمة عن مفهومها العسكري حتى أصبحت تعني نفس ما تعنيه كلمة الزاوية والخانقاه. الولي، الشيخ طه، المدينة في الإسلام، مجلـــة الاجتهاد، ج6، دار الاجتهاد، بيروت 1990، ص62.

(4) الزوايا أصبحت تطلق على الدار الصغيرة التي تتسع لأشخاص قليلين يقيمون فيها في الغالب للعبـــادة وهي أصغر من الرباط، وربما كانت جزءاً منها حيث كانت تعد لإقامة بعض الصوفية والفقراء والأيتام وغيرهم. حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملـــوكي، ط8، دار الفكر العربي، القاهرة 1968 ص105.

(5) الخانقاه مكان للتعبد والزهد والبعد، ودخلت هذه الكلمة للعربية منذ انتشار التصوف في الإسلام، وقيـــل سميت بهذا الاسم (خانقاه) من الخنق لتضييق الصوفية على أنفســـهم. حنفـــي، عبـــد المـــنعم، معجـــم مصطلحات الصوفية، ط1، دار المسيرة، بيروت 1980

(6) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص230. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص340–341.

ومن المرافق أيضاً البيمارستانات[1] التي قدمت مجانية العلاج للفئات المعوزة والفقيرة بالإضافة إلى الأغنياء الذين لا يجدون دواءً لعللهم، وكان بيمارستان ببغداد وهو على دجلة، يتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية، والماء يدخل اليه.... [2]"

ومن المرافق المهمة التي يشار إليها بالبنان والتي لم تقتصر على بغداد بل إنها غدت علامة مميزة وفارقة في الحضارة الإسلامية هي الحمامات، ففي سنة 580 هـ /1185م حين وفد ابن جبير على بغداد أعجب بحماماتها، فهي لا تحصى عدة، وذكر أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل[3]، وكانت الحمامات تحتوي على مخادع مفروشة بالفسيفساء، وفي كل مخدع حوض من الرخام فيه أنبوبان للماء لبارد، أما الغرف الخارجية فكانت للاستراحة وتناول الأطعمة الخفيفة[4].

وأشرنا سابقاً إلى إحسان بعض الأمراء مثل مظفر الدين كوكبري أمير إربل الذي أنشأ دار مضيف يأوي إليها كل من يفد إلى إربل من الآفاق والنواحي المختلفة، من الفقهاء والوعاظ والقراء والشعراء، ورتّب لهم فيها الغداء والعشاء ومصاريف السفر، وبنى أيضاً بيوتاً للزمنى والعميان، وقرّر لهم ما يحتاجون إليه في معاشهم، وكان يتفقّدهم بنفسه كل اثنين وخميس في وقت العصر، وبنى داراً للأرامل من النساء، وأخرى للّقطاء، وأخرى للأيتام،

---

(1) بيمارستان كلمة فارسية من بيمار بمعنى مرض وستان لاحقة تفيد المكان وتعني دار الشفاء أو المستشفى. آدي شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت 1980 ص33-145.

2) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص180.

(3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص183. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص341.

(4) فيليب، حتي، تاريخ العرب، ج2، ص415.

وأجرى على هؤلاء نساء مرضعات تكون مهمتهن إرضاع الجائع من الأطفال، وأجرى على أهل كل دار ما يحتاجون إليه، وكان يتفقّد أحوالهن من حين إلى آخر، يقول في ذلك ابن خلكان: " وكان قد بنى أربع خانقاهات للزمنى والعميان وملأها من هذين الصنفين، وقرر لهم ما يحتاجون إليه كل يوم، وكان يأتيهم بنفسه في كل عصرية اثنين وخميس ويدخل عليهم، ويدخل إلى كل واحد في بيته، ويسأله عن حاله ويتفقده بشيء من النفقة، وينتقل إلى الآخر، وهكذا حتى يدور على جميعهم، وهو يباسطهم ويمزح معهم ويجبر قلوبهم، وبنى داراً للنساء الأرامل، وداراً للصغار الأيتام، وداراً للملاقيط رتب بهم جماعة من المراضع، وكل مولود يلتقط يحمل إليهن فيرضعنه، وأجرى على أهل كل دار ما يحتاجون إليه في كل يوم، وكان يدخل إليها في كل وقت ويتفقد أحوالهم ويعطيهم النفقات زيادة على المقرر لهم، وكان يدخل إلى البيمارستان ويقف على مريض مريض ويسأله عن مبيته وكيفية حاله وما يشتهيه وكان له دار مضيف يدخل إليها كل قادم على البلد من فقيه أو فقير أو غيرهما، وعلى الجملة فما كان يمنع منها كل من قصد الدخول إليها، ولهم الراتب الدار في الغداء والعشاء، وإذا عزم الإنسان على السفر أعطوه نفقة على ما يليق بمثله، وبنى مدرسة رتب فيها فقهاء الفريقين من الشافعية والحنفية، وكان كل وقت يأتيها بنفسه، ويعمل السماط بها ويبيت بها ويعمل السماع، فإذا طاب وخلع شيئاً من ثيابه، سير للجماعة بكرة شيئاً من الأنعام......... [1]"

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص116. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص341-342.

الفصل الخامس

سياسة الخليفة الناصر لدين الله الاقتصادية من خلال المصادر التاريخية والدراسات الحديثة

حين يكون الحديث عن الاقتصاد فإنه يستلزم التطرق لعدة ميادين والتي تشكل بمجموعها النظام الاقتصادي، وهي الزراعة والصناعة والتجارة والإقطاع.

المبحث الأول: الزراعة

تميزت بلاد المشرق الإسلامي بشكل عام بإنتاج مجموعة من المحاصيل الزراعية، كالحبوب والخضروات والفواكه وغيرها من المنتجات الغذائية ومن أهمها التمر وهو من أكثر الصادرات العراقية إلى بلاد الهند، ومن أشهر المدن بإنتاجه بلدة عين التمر وواضح من التسمية أنها أنتجته بغزارة، وهي بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفاثا، منهما يجلب القسب[1] والتمر إلى سائر البلاد، وهو بها كثير جداً[2]، وهذه مدينة هيت القائمة على نهر الفرات اشتهرت بإنتاج التمور " فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة"، وكانت تتاجر به مع الشام حيث كانت على ممر القوافل المتجهة إلى بلاد الشام[3]،

(1) القسب: تمر يابس يتفتت في الفم صلب النواة. الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت393 هـ /1003م) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط4، ج1، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت 1987 ص201.

(2) الحموي، معجم البلدان، ج4، ص176.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج5، ص421.

ومن المدن العراقية التي اشتهرت بإنتاج النخيل مدينة بعقوبا وهي على نهر ديالى من جانبه الغربي، ويجري في وسطها نهر جلولاء، وهي كثيرة الأنهار والبساتين، واسعة الفواكه متكاثفة النخل، وبها رطب وليمون، يضرب بحسنها وجودتها المثل[1]، وكذلك مدينة بادرايا التي تقع على أطراف واسط والتي اشتهرت بإنتاج التمر القسب اليابس الغاية في الجودة واليبس[2]،

وليست مدينة الحلة ببعيدة عن ذلك فقد زارها ابن جبير وأعجب بما شاهده فيها : " .... متصلة حدائق النخيل داخلاً وخارجاً، فديارها بين حدائق النخيل..." [3]،

وأيضاً مدينة واسط التي نالت اعجاب الجغرافي ياقوت الحموي حين مرّ بها إذ قال: " ورأيت أنا واسطا مراراً فوجدتها بلدة عظيمة ذات رساتيق وقرى كثيرة وبساتين ونخيل يفوت الحصر، وكان الرخص موجوداً فيها من جميع الأشياء ما لا يوصف....." [4]، وقريب من هذا الوصف تكون خوزستان فيقول: " وأما ثمارهم وزروعهم فإن الغالب على نواحي خوزستان النخل ولهم عامة الحبوب من الحنطة والشعير والأرز فيخبزونه وهو لهم قوت كرستاق كسكر من واسط"[5]، واشتهرت كذلك سجستان بزراعة النخيل حتى تكاثر بها[6]، وانتشر كذلك في سمنان الواقعة بين الري وهمذان[7]، ونمضي مع ياقوت إلى الشرق حيث مدينة كازرون فيقول : " وبكازرون تمر يقال له الجيلان يتفرد به ذلك الموضع ولا يكون بالعراق ولا

---

(1) الحموي، معجم البلدان، ج1، ص453.
(2) الحموي، معجم البلدان، ج1، ص316–317. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص231–232.
(3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص169.
(4) الحموي، معجم البلدان، ج5، ص350.
(5) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص405.
(6) الحموي، معجم البلدان، ج3، ص190.
(7) الحموي، معجم البلدان، ج3، ص251.

بكرمان مثله ويحمل منه إلى العراق في الهدايا على كثرة التمور بالعراق... [1]"، فيظهر أن تمر كازرون لا نظير له في المنطقة على ذمة ياقوت، واشتهر اقليم خراسان بشتى أنواع الحبوب ولا سيما القمح والشعير، وكان الأهالي يقايضون به مع بعض البلاد المجاورة لهم[2].

وإن انتقلنا إلى محاصيل أخرى مثل السكر فإن هناك مناطق كثيرة اشتهرت به، مثل كرمان وكورة سابور وخوزستان، وسيرجان قصبة كرمان، وولاية مكران[3]، ومدينة جرجان[4]، أما القطن فقد اشتهرت به بلدة حربي وهي في أقصى دجيل بين بغداد وتكريت مقابل الحظيرة، تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة وتحمل إلى سائر البلاد[5]، أما القطن الموصلي الذي كان يزرع في الموصل فكان من أجود أنواع القطن، وكذلك قطن بلدة رأس العين القريبة من منابع نهر الخابور، وقطن ماردين الذي يزرع بكثرة في نواحيها[6].

وفي أرض السواد كانت تزرع البقول والثمار والجوز والبرتقال وغير ذلك من المنتجات التي ينزرع في المناطق الحارة والباردة، وما كان يخلو منها بلد واحد من بلاد العراق، وفي المشرق الإسلامي اشتهرت مدن معينة كذلك فيورد فيليب حتي في كتابه ما نصه: " كورة بخارى في رأي جغرافيي العرب جنة حقيقية، فهنا بين سمرقند وبخارى يقع وادي الصغد المعدود من جنان الأرض الأربع، والجنان الأخرى هي شعب بوان في فارس وبساتين الأبلة الممتدة من البصرة إلى الجنوب الشرقي وغوطة دمشق، فكان ينمو في جنااين

---

(1) الحموي، معجم البلدان، ج4، ص429.

(2) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص405. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص234.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج3، ص168-179، ج5، ص180، ج2، ص405.

(4) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص119.

(5) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص237. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص236.

(6) أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت732 هـ /1331م) تقويم البلدان، تحقيق رينود وماك كوكين ، دار صادر، بيروت 1990 ص279. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص238.

هذه الكورة شتى أنواع الأشجار المثمرة والبقول والأزهار"[1]، وفي بغداد كان يزرع التفــاح والكمثرى والخوخ والإجاص والرمان والقنب والسفرجل والبطيخ والتين والخيــار والأتــرج والعنب، وتميزت سونايا وهي قرية قديمة كانت ببغداد بالعنب الأسود الذي يتقدم ويبكر علــى سائر العنب[2]، واشتهرت شهربان الواقعة شرقي بغداد ناحية الخالص بجودة الرمان، وكــذلك صيرفون إحدى قرى دجيل بالليمون الحلو، وكان الناس يطلقون تسمية " شان انجير" على تين حلوان لشدة جودته " وتينها ورمانها في غاية الطيب، لم يوجد في شيء من البلاد مثلهما" [3].

وانتشرت زراعة العنب في العراق، ففي أطراف اربيل كانت بلد اشقلاباذ حيــث زرع وأنتج بكميات كبيرة لخصوبة الأرض، وزرع أيضاً بشهرستان إحدى مناطق بلاد فارس وهي قصبة سابور، وفي بلاد ما وراء النهر عرفت مدينة فرغانة، وزرعه أيضــاً أهــل ســابور فجعلوه من منتجاتهم الرئيسة، وفي بلدة الطاق من مدينة سجستان توفر العنب بشــكل كبيــر، ويعد كذلك من أهم منتجات مدينة جرجان[4].

وكان يزرع الأترنج والنارنج في بعض نواحي العراق وبلاد المشرق الإسلامي، وجلب إلى هذه المناطق من الهند منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فاشتهرت به رامهرمز من بين مدن خوزستان فكانت تجمع النخل والجوز والأترنج[5]، وزرع كــذلك فــي البصــرة

---

(1) حتي، تاريخ العرب، ج2، ص429-430. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص238.

(2) الحموي، معجم البلدان، ج3، ص285. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص239.

(3) القزويني، زكريا بن محمد محمود (ت682هـ/1283م) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت 1995 ص357.

(4) ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير يوسف فرنسيس وكوركيس عواد، ومطبوعــات المجمع العلمي العراقي، بغداد 1954 ص410-411-471-531. محمد، عــودة الــروح للخلافــة الإسلامية، ص239.

(5) الحموي، معجم البلدان، ج3، ص17.

وجرجان وفي قرية جبة من العراق، وفي مدينة سنجار إحدى مدن الجزيرة الفراتيـــة، وزرع في اقليم طبرستان وفارس وخوزستان[1].

أما الرياحين الورود فكانت من أفضل منتجات العراق وبعض أقطار المشرق الإسلامي، مثل الرياحين والبنفسج والنرجس، واشتهرت به أيضاً بلاد ما وراء النهر مثل فرغانة والشاش وغيرها من المناطق، ووصف القزويني الورد الجوري نسبةً إلى جور إحدى قرى فارس بأنه أحمر صافي اللون يعتبر من أجود أنواع الورود، وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

أطيب ريحا من نسيم الصبا، ... جاءت بريا الورد من جور[2]

وأنه يتمثل به بطيب رائحته وهذا سر تقدم صناعة العطور، كما سيأتي فـــي المبحـــث اللاحق المختص بالصناعات.

المبحث الثاني: الصناعات

سنبدأ بالنسيج وهو من أوائل الصناعات التي ابتكرها الانسان ليستر عورته وليتقي حـــر الصيف وبرد الشتاء، من المعروف أن صناعة النسيج في التاريخ القديم كانت ميزة امتازت به الحضارة الفارسية فيما اصطلح عليه بالسجاد العجمي، ولكن مع ظهور الحضارة الإســـلامية برزت مدن اختصت واشتهرت بالنسيج، مثل مدينة الموصل، فهي التي أنتجت الموسلين، مثل دمشق التي أنتجت الدمقس[3]، ويرجع تاريخ النسيج في الموصل إلى ما قبل الإســـلام، وفـــي العصر الإسلامي غدت من أهم المراكز في إنتاجه، وكان نسّاجوا الحرير يتخـــذون حواشـــي مقصّبة للتزيين، ويوشّونها أحياناً بخيوط الذهب والفضة، ولـــم تكـــن شـــهرة الموصـــل فـــي المنسوجات القطنية بأقل من شهرتها في المنسوجات القطنية، فقد عرف الشاش الموصلي الذي

---

(1) ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص89-90.

(2) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص181. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص242-243.

(3) ديمومبين، النظم الإسلامية، ص253-254.

يتّخذ لتزيين عمائم الرؤوس، ولما كانت المنتوجات تزيد عن الحاجة كانت تصدّر إلى الخارج[1].

واشتهرت كازرون إحدى مدن فارس بصناعة النسيج وأطلق عليها دمياط العجم[2]، لكثرة ما كان يصنع بها من ثياب الكتان، وعندما يقال " الثياب التسترية" فإنها منسوبة إلى مدينة تستر وهي محلة كانت ببغداد في الجانب الغربي بين دجلة وباب البصرة[3]، بينما يعزو القزويني اشتهار تستر بالنسيج بسبب غزو بعض الأكاسرة لها الروم وحملهم الأسارى إليها وأسكنهم فيها فظهرت فيها صنائع الروم وبقيت في أهلها[4]، واشتهر اقليم فارس بصناعة النسيج كذلك، ففي مدينة يزد صُنع الحرير والسندس، وفي مدينة غندجان صنعت البسط والستور والمقاعد[5]، وبمدينتي توج وفسا كثرت الأنوال المخصصة لصناعة النسيج[6].

وفي الكرخ على مقربة من بغداد كانت تنسج المنسوجات الإبريسمية، وكانت مدينة تكريت مركزاً من مراكز الصناعات الصوفية، وكان الثوب المعروف بالكرباسي الصفيق من إنتاج مدينة بلدة الحظيرة الواقعة بالقرب من دجيل[7]، وتميزت الكوفة عن غيرها من المدن بعمائم الخز الحريرية التي عرفت لاحقاً بالكوفيات، وأيضاً مدينة الأبلّة اشتهرت بعمل ثياب الكتان الرقيقة، واختصت النعمانية بصناعة الأكسية وثياب الصوف[8].

---

(1) الجميلي، رشيد، دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي، ط1، دار النهضة العربية، بيروت 1970 ص305-306. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص247.

(2) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص244.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص31.

(4) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص171.

(5) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص282.

(6) الحموي، معجم البلدان، ج4، ص216. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص249-250.

(7) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص444.

(8) ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص109-110. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص252.

وفي بغداد عاصمة الخلافة لا بد أن تشتهر صناعة المنسوجات خاصة إذا علمنا أن هناك دار الطراز، وهي مصانع تصنع فيها الخلع المطرّزة تحت إشراف موظفين معينين، ثم يحملونها إلى البلاط وكانت تحمل اسم الخليفة منقوشاً [1] ، فمحلة العتابين في بغداد اشتهرت بإنتاج الثياب العتابية، وهي في الجانب الغربي من بغداد، وهي منسوبة إلى عتاب أحد أحفاد بني أمية، وتمتاز هذه الثياب بأنها من الحرير ونادراً ما تكون من القطن، وهي كما يذكر ديمومبين : " مختلفة الألوان جيدة الصنع، وكانت بعض أنوال البلاد الإسلامية تقلد ما ينسج منها ببغداد، وتسميه باسمها، فهذه تبريز أشهر مدن أذربيجان أطلقت على منتوجاتها اسم العتابي[2].

ولمدينة ماردي نصيب آخر من إنتاج النسيج، وبالتحديد كانت تصنع الثياب من الصوف[3]، وهناك الثياب النرسية المنسوبة إلى نهر نرس القريب من الكوفة[4]، ومن أشهر أنواع الثياب التي يرد ذكرها في كتب الأدب والتراث ما يسمى بالثياب الإبريسمية، وهي من أرقى أنواع الحرير وتباع إلى جميع الآفاق[5].

وإذا انتقلنا للتحف المعدنية فإننا سنجد أن الموصل تميزت بهذه الصناعة، ويعزى ذلك إلى توافر معدن النحاس في الخابور، وكانت تميز هذه التحف بالرسومات الآدمية والحيوانية، وبالتطعيم بالذهب والفضة، وكان لمدرسة الموصل أثرها في تقدم هذه الصناعة لكثرة من هاجر إليها من صنّاع الموصل الذين برعوا في هذا الفن[6]، إلا أن هذه الصناعة لم تلبث إلا

---

(1) ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص330-331.

(2) ديمومبين، النظم الإسلامية، ص253-254.

(3) ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص125-126.

(4) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص455.

5) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص119. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص250.

(6) الجميلي، دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي، ص306-307.

وأصابها الركود عندما هاجم المغول بلدان الخلافة الشرقية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[1].

ومن الصناعات التي اشتهرت بها العراق صناعة العطور، وبالتحديد في وادي الرافدين، وفي بلاد فارس، وفي عهد الخليفة الناصر كانت أفضل العطور تستخرج من الورد الأحمر الذي كثر في رساتيق مدينة جور، وكان مضرباً للأمثال[2].

ونختم الحديث عن الصناعات بصناعة الزجاج، فيذكر أحد المؤرخين المحدثين أن بغداد وحدها كانت تضم أربعة آلاف معمل لصناعة الزجاج، وكان يطلى بالميناء ويلوّن بالألوان الزاهية، وإن فن صباغة الزجاج وتلوينه وترصيعه بالجواهر أخذها العرب عن الفرس، وكانوا يكتبون عليه بالذهب كتابات مجسّمة، ويرسمون على الأقداح والكؤوس صوراً مختلفة[3].

المبحث الثالث: التجارة

ظل العراق طوال العهد العباسي يستورد كميات هائلة من السلع المختلفة، التي كانت ترد إليه من جميع أنحاء العالم، وإن الثراء المادي الذي بلغه العباسيون كان من أهم العوامل التي ساعدت على ورود عدد هائل من السلع الأجنبية منها الضروري ومنها الكمالي، وقد وردت في المصادر معلومات هامة عن السلع التي وردت العراق، مثل التبصّر بالتجارة للجاحظ، وكتاب البلدان لليعقوبي، وكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، وكتاب صورة الأرض لابن حوقل، وكتاب أحسن التقاسيم للمقدسي.

(1) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص269-270.

(2) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص181. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص257-258.

(3) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج4، ص397.

فمن الهند كانت تأتي الأحجار الكريمة والياقوت والأطياب بأنواعها، والعنبر والعــود الفاخر وجوز الهند، والقرنفل والفلفل، والنيل الذي كانت تصبغ به الملابس، والسيوف الهنديــة والتحف[1].

ومن الصين كانت تأتي ثياب الحرير والديباج والكاغذ، والمسك الجيد والعود، والرقيق المخصي، وأدوات الذهب والفضة[2]، ومن أقاليم أواسط آسيا كانت ترد مجموعة واسعة مــن السلع المختلفة، فمن خوارزم يُجلب المســك الجيــد، وفــرو الثعالــب والســمور، والفنــك " الرصاص، أما من سمرقند فكان التجار يجلبون الكاغذ والبغال والثياب الســمرقندية[3]، ومــن إقليم تركستان كانت تجلب أنواع جيدة من الثياب، أما أهم سلعة من أواسط آسيا فكان الرقيــق الأبيض من الترك، وتعتبر مدينة سمرقند أهم الأسواق للرقيق[4].

ومن إيران كان تأتي الجياد والثياب المروية، أي من مرو، والزئبق والجوخ، وكانــت الأسلحة تأتي من الري، واشتهرت أصفهان بالعسل والزعفران والتفاح، ومن الأهــواز كــان يجلب السكر والديباج والزعفران الجيد، ومن أرمينيا كان يجلب الفرش والصــوف والســمك المملح والبغال والجياد[5].

ومن بيزنطة كانوا يستوردون العقاقير والديباج وأواني الذهب والفضة، والمصــطكي والمرجان والثياب الكتانية والجواري الروميات، وجلود الخزّ والوبر[6]، ومن بــلاد الســودان

---

(1) الجاحظ، عمرو بن بحر(ت255 هــ/869م) التبصر بالتجارة، ص25.

(2) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص26.

(3) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص29.

(4) الدوري، عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص77.

(5) المسري، حسين علي، تجارة العباسيين الخارجية، الكويت 1983 ص204.

(6) ابن خرداذبه، عبيد الله بن أحمد(ت280 هــ /893م) المسالك والممالك، دار صادر، بيــروت 1889 ص92.

الشرقي كان يجلب الرقيق الأسود والعاج والعنبر والتوابل وغيرها من السلع، أما المناطق الإسلامية فكان يرد منها للعراق كل إقليم بما يكثر فيه، فاليمن يصدر العقيق والعنبر والبغال والحمير، والكندر[1]، ومن الشام كان يجلب الدقيق وزيت الزيتون والسكر والفواكه خاصة التفاح والتين، والزجاج والأدوات الزجاجية والقطن ومنتوجاته[2]، ومن فلسطين الزيت والقطّين، والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط، ومن بيت المقدس الجبن والقطن، وزبيب العينوني والتفّاح[3].

ومن مصر كان يستورد الورق وبعض أنواع الأقمشة مثل الديبقي، المنسوب لديبقو والتنيسي المنسوب لتنيس، والستور والبسط والمنتجات الصوفية[4].

أما الهند فأهم سلعها التي كانت تصدّرها للعراق هي الأحجار الكريمة والأطياب واليواقيت بأنواعها، والعنبر الذي كان يؤتى به من سواحل الهند الداخلية، ويحمل إلى البصرة، وأشهر العنبر المسمى كرك بالوس وينسب لقوم من الهنود اختصاصهم بجلبه، حيث يأتون به لساحل عمان ويشتريه التجار منهم[5]، وكان يجلب الياقوت بأنواعه وأشكاله والدر والبلور والسنباذج (مادة تعالج بها الجواهر)، واشتهرت مدينة كلاه الهندية بإنتاج الرصاص المعروف بالقلعي الذي كان يرد إلى العراق [6]، كما دخلت بعض المحاصيل الزراعية إلى العراق مثل

---

(1) الكندر هو (اللبان) نبات من الفصيلة البخورية يفرز صمغاً. مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج2، دار الدعوة، اسطنبول 1989 814.

(2) المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت380 هـ /990م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، كتبة مدبولي، القاهرة 1991 ص180.

(3) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص180.

(4) المسري، تجارة العباسيين الخارجية، ص206.

(5) الحسيني، محمد صادق، عمران بغداد، مطبعة دار السلام، بغداد 1930 ص140.

(6) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص92.

البرتقال والليمون عن طريق عمان[1]، ومنها إلى البصرة ثم إلى باقي أنحاء العراق، وحتـــى شتلات أشجار النارنج والأترج قد جلبت من الهند وبيعت في أسواق بغـــداد، كمـــا اســـتورد خشب الساج من الهند، وكان هذا النوع من الخشب يعتبر أفضل ما استعمل في بنـــاء البيـــوت في بغداد[2].

أما من الصين فقد وجدت المنتجات الصينية بكميات كبيرة في أسواق بغـــداد، ولكنهـــا كانت مرتفعة الثمن، ولعل ذلك يرجع إلى طول المسافة، وأخطار الطريق التـــي تـــؤدي إلـــى تحطم السفن والتعرض لأعمال القرصنة، ومن السلع التي وردت على أسواق بغـــداد الـــورق الصيني حيث وجدت منه دفاتر كثيرة، بالإضافة إلى ثياب الحرير والديباج والسروج واللبـــود والغضائر الفاخرة، والكاغذ الجيد والمواد والطواويس والدارصيني[3]، والمسك وأفضله ممـــا يؤتى به من خانقو مرفأ الصين العظيم، وكان ذو رائحة قوية، ومن الطريـــف مـــا يـــذكر أن التجار لم يتمكّنوا من إخفائه إذا ما وصلوا العشّارين داخل حدود العراق، وأقل منه في الجودة مسك قنبارا، وكثيراً ما كان التجار يغالطون به وينسبونه إلى المسك التبتي[4].

ومن خراسان لعب التجار دوراً واضحاً في العمليات التجارية، فقد كانوا يجلبون معهم منتجات بلادهم ويبيعونها في بغداد، وكانوا يجنون أرباحاً كبيرة من هذه التجارة[5]، فكان يرد من خراسان العمائم الخراسانية والثياب الخراسانية من إقلـــيم الرحـــاب[6]، وكانـــت تجلـــب

---

(1) سرور، محمد جمال الدين، تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص127.
(2) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص26.
(3) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص27.
(4) اليعقوبي، أحمد بن اسحق (ت292 هـ /905م) البلدان، ط1، دار الكتـــب العلميـــة، بيـــروت 2002 ص36.
(5) الجاحظ، عمرو بن محبوب (ت255 هـ /869م) البيان والتبيين، ط2، دار ومكتبة الهـــلال، بيـــروت 1999 ص37.
(6) الرحاب هي ناحية بأذربيجان ودربند. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص31.

الإبريسم[1] والأبواب وثياب الكتان وثياب الصوف والرقيق والزعفـران والبسـط والوسـائد والستور والجياد والبغال[2].

ومن نيسابور كانت تجلب الثياب البيض الخفيفة والعمائم والقز والسمسم، وفرو الثعالب والحصر والحبوب والديباج والتمور، والحبال والهب واللبود والبسط، والحقائب والمصنوعات الجلدية، والصابون والخيول والبغال[3]، والمشطي والحلل وثياب الشـعر والغـزل، ويـذكر المقدسي أن إقليم السند كان فيه تجارات كثيرة وبضائع وفيرة، وأسعار ومتاجر وصـناعات، وربما أن رخص الأسعار كان سبباً في تصدير منتجات السند إلى بغداد، وتحمل أيضاً الفيلـة والعقاقير والقرنفل والخيزران، والكافور والفلفل والزنجبيل وثياب القطن[4].

ومن أشهر الأطياب التي جلبت للعراق من الصين ما أطلق عليه اسم العود، ويقال لـه العود الصنفي نسبةً إلى البلد الذي يجلب منه في أطراف الصين[5]، ويصل من الصين أيضـاً الجواري والخصيان وأواني الذهب والفضة والأقفال والعقاقير[6]، ويذكر اليعقوبي أيضـاً أن طرائف من سلع الصين كانت تأتي على أسواق بغداد وكانت تلاقي رواجاً وإقبالاً كبيرين[7].

أما ما كانت تصدّره بغداد عاصمة الخلافة للعالم الخارجي فإن معظم التجارات اشتملت على المنسوجات الصناعية التي راجت في بغداد، كالحرير الفاخر والأقمشة القطنية، والعمـائم الرقيقة والمناديل بأنواعها، وكانت تصنع في بغداد الأزر التي كانت تعمر أسواق كثيـرة مـن

(1)الإبريسم هو الحرير، وهو لفظ فارسي معرّب. الفارابي، الصحاح، ج5، ص1871.

(2) التنوخي، المحسن بن علي بن محمد (ت384 هـ /994م) الفرج بعـد الشـدة، ج2، تحقيـق: عبـود الشالجى، دار صادر، بيروت 1978 ص11.

(3) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص27.

(4) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص323-324.

(5) اليعقوبي، البلدان، ص36.

(6) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص26.

(7) اليعقوبي، البلدان، ص37-38.

المدن العراقية[1]، وهناك الآجر العراقي[2] الشهير الذي أرسلت كمية منه لتزيين مسجد القيروان، وقد شاهد الرحالة العرب في الكعبة قناديل من الزجاج العراقي تزيّنها نقوش جميلة، ولم تقتصر صادرات بغداد على منتوجاتها فحسب، بل إنها صدّرت في بعض الأحيان منتوجات مدن أخرى[3]، ولقد كان تجار العرب يجلبون المنسوجات والمرايا والطيوب إلى بغداد، ثم بعد ذلك يتولى تجار بغداد تصدير ما فاض من هذه السلع إلى الخارج، وبذلك اصبحت بغداد مركزاً تجارياً عالمياً تتحدّد فيه أسعار السلع[4].

يذكر الأيوبي أن السنة 575 هـ /1180م التي تولى فيها الناصر الخلافة كانت الأسعار مرتفعة فيقول: " وكانت الأسواق تغلق في أكثر الأوقات لا يجسر أحد أن يبيع ويشتري" [5]، ويرجع الأيوبي السبب في ذلك إلى سوء إدارة وزير الخليفة المستضيء المسمى المسمى بابن العطار، وكذلك صاحب المخزن، فقد استولى ابن العطار على جميع العاملات في واسط، واحتكر غلّات سائر البلاد ومنع البيع من خزائن الغلات والحبوب، فغلت بذلك الأسعار، فلما تولى الناصر الخلافة عزل ابن العطار وصادر ما لديه، وتقدم أستاذ داره مجد الدين بن الصاحب ببيع الحبوب والغلات للناس، فرخصت الأسعار وكثرت الخيرات، وفرّج الله عن الناس ما كانوا فيه من قحط وشدة، : " وفيها تراخت الأسعار جدا وكثرت الأمطار وأخصبت البلاد ونمت الزروع، وفيها أمر الخليفة بالخلع والتشريفات على الأمراء وأرباب

---

(1) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص39.

(2) الآجر هو الطين يشوى بالنار ويستخدم في البناء. قلعجي، محمد رواس وآخرون، معجم لغة الفقهاء، ط2، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت 1988 ص35.

(3) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص77.

(4) العلي، صالح، التنظيمات الاجتماعية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط2، دار الطليعة، بيروت 1962 ص225.

(5) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص3.

الدولة وضاعف أرزاق المماليك [1]، ويقول الحموي عن أحـوال مدينـة واسـط : " وكـان الرخص موجوداً فيها من جميع الأشياء ما لا يوصف بحيث أني رأيت فيها كوز زبد بدرهمين واثنتي عشرة دجاجة بدرهم وأربعة وعشرين فروجاً بدرهم والسمن اثنا عشر رطلاً بـدرهم والخبز أربعون رطلاً بدرهم واللبن مائة وخمسون رطلاً بدرهم والسمك مائة رطـل بـدرهم وجميع ما فيها بهذه النسبة"[2]، وفي سنة 604 هـ / 1207م أمر الناصر بأن تلغـى ضـريبة المؤن، وهي كانت تفرض على كل المبيعات من سائر الأجناس والأماكن، وكان مبلغ ما يؤخذ منها مائتا ألف دينار سنوياً يدفعها أصحاب المبيعات لمستوفي الضرائب، وأمر قـوام الـدين نصر بن ناصر صدر المخزن بتنفيذ ذلك[3]، إن هذه الإجراءات عملت على تنشـيط الحركـة التجارية، وأدت إلى تراخي تدريجي للأسعار، ففي سنة 596 هـ / كان سـعر الكـر[4] مـن الحنطة خمسة عشر ديناراً، والشعير ستة دنانير، بينما في سـنة 605 هـ /1208م كانـت الأسعار قد رخصت فسعر الكر من الحنطة سبعة دنانير وعشرة قراريط بدل خمسـة عشـر، والشعير بثلاثة دنانير بعد أن كان بستة، إن هذه الأسعار كانت قـد انعكسـت علـى التجـارة إيجاباً، فتجاوز دخول بعض التجار مليون درهم، وهذا أحد تجار البصرة من أصحاب السـفن الذين كانوا يتاجرون مع سائر البلدان وصل دخله مليون درهم، وكان التاجر العادي ينفق على بيته وأهله في سيراف[5] الفارسية ما يتراوح بين ثلاثين ألف ومائة ألف درهم[6].

---

(1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص39.

(2) الحموي، معجم البلدان، ج5، ص350.

(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص227-228.

(4) الكر من مكاييل العراق وهو ستون قفيزاً والقفيز عشرة أعشر أو خمسة وعشرون رطـلاً بالبغـدادي. الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت387 هـ /997م) مفاتيح العلـوم، ط2، تحقيـق إبـراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت 2000 ص92.

(5) سيراف مدينة جليلة على ساحل البحر كانت قديماً فرضة الهند، وكانت قصبة أردشير خرّة من فارس، وهى في لحف جبل عال جدا] بينها وبين البصرة سبعة أيام. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص294.

(6) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج8، ص18-269.

إنه لما ظهر المغول كقوة سياسية مؤثرة في شرق آسيا في بداية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، واتخذوا من مدينة قراقورم عاصمة لهم، سعوا جاهدين إلى تنمية علاقاتهم الاقتصادية مع منطقة بلاد ما وراء النهر، وكانت ما وراء النهر في هذه الفترة تحت حكم الخوارزميين، وقد بعث جنكيز خان الزعيم المغولي إلى السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه بهدايا ثمينة، وكان جنكيز يأمل من ذلك عقد اتفاقية تجارية تسير بموجبها القوافل بين البلدين، وبالفعل استطاب السلطان الخوارزمي لهذا الأمر وعقدت الاتفاقية، ونشطت الحركة التجارية بين البلدين، وأصبح التجار المسلمون والصينيين يخترقون أواسط آسيا حتى الصين، ويبدو أن هذا الازدهار لم يكن ليحصل لولا أن جنكيز خان قضى على قطّاع الطرق، وزوّد أهم مسالك التجارة بحرّاس من قبله، وأمرهم بمرافقة كل أجنبي يحمل تجارة عبر بلاده حتى اجتيازه للأرض التي يحكمها المغول، وأوصى جنكيز خان كل عمّاله بحسن معاملة التجار، وبذلك أمنت الطرق ونشطت حركة التجارة بين مشرق الدولة الإسلامية وبلاد الصين، وظل الوضع هكذا ما يقرب من عام، حيث أن السلطان الخوارزمي نقض الاتفاقية وقتل تجار المغول ورسلهم، وسد طرق التجارة في وجه القاصدين[1].

ولكن ما العامل الذي كان يوقف حركة التجارة؟ لعلنا نجد التفسير عند ابن الأثير، فهو يذكر في أحداث سنة 602 هـ /1205م ما نصه: " وفيها تجهز غياث الدين خسرو شاه صاحب مدينة الروم، إلى مدينة طرابزون، وحصر صاحبها لأنه كان قد خرج عن طاعته،

---

(1) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص84-85. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص272.

فضيُق عليه، فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم، والروس، وقفجاق وغيرها، براً وبحـــراً، ولم يخرج منهم أحد إلى بلاد غياث الدين، فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس، لأنهم كـــانوا يتجرون معهم، ويدخلون بلادهم، ويقصدهم التجار من الشام، والعراق، والموصل، والجزيـــرة وغيرها، فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير، فحيث لم ينفتح الطريق تـــأذوا أذى كثيـــراً، فكان السعيد منهم من عاد إلى رأس ماله"[1]، فهو بهذا يعزو السبب إلى الحروب، ولا شـــك أن ما حصل لاحقاً من امتداد للجيش المغولي للغرب كان له أثر بالغ على حركة التجارة.

المبحث الرابع: الإقطاع

الإقطاع لغةً من قطعته أوصلت إليه القطع واستعملته فيه، وأقطـــع النخـــل إقطاعـــا إذا أصرم وحان قطاعه، وأقطعته: أذنت له في قطاعه، والإقطاع يكون تمليكا وغير تمليك. يقال: استقطع فلان الإمام قطيعة فأقطعه إياها إذا سأله أن يقطعها له ويبينها ملكا له فأعطاه إياها[2].

أما اصطلاحاً فهو أن يدفع الأئمة إلى من يرون أن يدفعوا إليه شيئاً ممـــا ذكرنـــاه مـــن الأراضي، يملك المدفوع ذلك إليه رقبته لحق الإقطاع ويجب عليـــه فيـــه العشـــر، ويعرّفـــه الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم بقوله: " أن يقطع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له رقبتهـــا وتسمى تلك الأرضون: قطائع واحدتها: قطيعة"[3]، أما الماوردي فقـــد تحـــدّث عـــن اقطـــاع الاستغلال وأسار إلى أن يعطى بدل العطاء، " أهل الجيش هم أخـــص النـــاس بجـــواز هـــذا الإقطاع"، وهو يقر الإقطاع من أرض الخراج ويرفضه إن كان من أرض العشـــر[4]، وهـــو يقسم الإقطاع إلى نوعين إقطاع التمليك وتنقسم فيه الأرض ثلاثة أقسام، أ – المـــوات وهـــي

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص238. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص278.
(2) ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص280–281.
(3) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص86.
(4) الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري (ـــت450 هــ /1058م) الأحكام السلطانية والولايـــات الدينية، بغداد 1989 ص302.

على نوعين الأول ما كان مواتاً منذ القديم بحيث لم يعمر ولم يثبت عليه ملك، وهـذا يجـوز للسلطان أن يقطعه لمن يحييه ويعمره، ب – ما كان عامراً ثم خرب وصار مواتاً عاطلاً وهو على نوعين أحدهما ما كان جاهلياً كأرض عاد وثمود وهذا جائز إقطاعه، والثاني مـا كـان إسلامياً وقد اختلف الفقهاء في حكم إحيائه على ثلاثة أقوال، الشافعي ذهب إلى أنـه لا يملـك سواء عرف أصحابه أم لم يعرفوا، ومالك بن أنس ذهب إلى أنه يملك بالإحياء سـواء عـرف أصحابه أم لا، أما أبو حنيفة فقال : إن عُرف أصحابه لا يملك بالإحياء، وإن لم يعرفوا مالـك بالإحياء رغم أنه لا يجوز على مذهبه أن يملك بالإحياء من غير إقطاع، فإذا عرف أصـحابه لم يجز إقطاعه، وإن لم يعرفوا جاز إقطاعه[1].

ويلاحظ أن ملكية الإقطاع تكون غير كاملة قبل تمام الإحياء، وإنما يعتبر المقطع بمثابـة واضع اليد ولا يكون مالكاً حتى يتم الإحياء، أما إذا عجز عن الإحياء لعذر ظاهر يظل واضع اليد حتى زوال عذره، أما إذا عجز لعذر غير ظاهر فله مدة ثلاث سنوات يبطل بعدها حيـازة الإقطاع[2]، أما الأرض العامرة فهي على نوعين أحدهما الذي يعرف ملكه فلا نظر للسـلطان فيه، إلا ما يتعلق بتلك الأرض من حقوق بيت المال إذا كان في دار الإسلام، أما إذا كان فـي دار الحرب وأراد الإمام أن يقطعها ليملك المقطع عند الفتح، جاز ذلك، وثانيهمـا الـذي لـم يعرف مالكه وهو على ثلاثة أقسام، الأول أن يصطفيه الإمام لبيت المال وهذا لا يجوز إقطاع رقبته لأنه صار ملكاً لكافة المسلمين، وللسلطان الحق في التصرف به إمـا باسـتغلاله لبيـت المال أو تعيين ذوي القدر للقيام بعمارته، والثاني أرض الخراج والتي لا يجوز إقطاع رقبتهـا

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص296.

(2) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص296–297.

تمليكاً، الثالث ما مات عنه أصحابه ولا يوجد له ورثة، فينتقل إلى بيت المـــال ميراثـــاً لكافـــة المسلمين، ولذلك لا يجوز إقطاعها ولا بيعها[1].

أما إقطاع المعادن وهي الأرض التي أودعها الله تعالى جـــواهر الأرض، فهـــي علـــى نوعين : ظاهرة وباطنة، أما الزاهرة فهي ما ظهر جوهرها والتي يمكن الحصول عليها بغير عمل شاق كالملح والكحل والغاز والنفط، وهذه لا يجوز إقطاعها فهي لعموم المســـلمين، أمـــا الباطنة والتي لا يتوصّل إليها بعمل كالمعادن والذهب والفضة فيجوز للإمام أن يقطع منهـــا، وهو إقطاع لا يملك المقطع به رقبة المعدن[2].

أما اقطاع الاستغلال فهو على نوعين العشر والخراج، فأما العشر فلا يجوز إقطاعه لأنه زكاة، وأما الخراج فله ثلاثة أحوال، الأولى أن يكون من أهل الصدقات فلا يجـــوز أن يقطـــع مال الخراج لأنه فيء لا يستحقه أهل الصدقة، كما لا يستحق الصدقة أهل الفيء، والثانيـــة أن يكون من أهل المصالح ممن ليس له رزق مفروض، فلا يصح أن يقطعـــه علـــى الإطـــلاق، والثالثة أن يكون من أهل الجيش فيجوز لهم الإقطاع لأن لهم أرزاق مقدرة تصرف لهم[3].

وفي عهد الناصر نجد أنه أقطع أمراءه وقادته، فمثلاً فـــي 577 هــــ /1182م تقـــدم الناصر إلى مجاهد الدين خالص الخادم أن ينظر في نهر ملك، ويرتب فيه من شاء من النواب والعمال والكتاب، وجميع ما يحصل من معاملات نهر الملك، فرض له عن نظره مـــالاً، وأذن

---

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص297-301. محمد، أمين صالح، النظـــام المـــالي والاقتصادي في الإسلام، ط1، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة 1984 ص144-145.

(2) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص304-306.

(3) القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ/1418م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط1، ج13، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر ، دمشق، 1987 ص122-124.

له في استخدام وزير لتدبير أمره، شريطة أن يقوم بإرسال موارد نهر الملـك إلـى الخلافـة، وهذا كان وفاءً من الخليفة لما أدّاه من خدمة في حقه حين كان أميراً، وقيامه بتربيته كذلك[1].

وفي سنة 596 هـ /1200م أقطع الأمير فلك الدين سنقر الطويل الناصـري دقوقـا[2] وتكريت وبين النهرين، وهي بلاد كانت بعيدة عن بعضـها يصـعب علـى الأميـر سـنقر إدارتها[3]، وفي السنة التالية أقطع ضمان البصرة على ألأمير عماد الدين طغرل الخاص بمبلغ مائة ألف وخمسة عشر ألف دينار في السنة[4].

وأقطع الأمير طاشتكين بن عبد الله المقتفوي أمير الحاج في خوزستان، وأرجع له بلدة الحلة التي كانت من قبل إقطاعاً له، وهذا بعد أن أطلقه من السجن، وكان قـد وضـعه فـي السجن بسبب وشاية من الوزير ابن يونس[5]، وفي سنة 604 هـ /1207م أقطـع الناصـر مملوكه الأمير علاء الدين تنامش دقوقا والدجيل[6]، وذلك بعد أخذها من ابن ساوا النصـراني، إذ ثبت للناصر أن الأخير تحكّم في المسلمين وأساء السيرة وتعسّف في جمع الأمـوال، وأنـه بمساعدة الوزير ابن مهدي كان يأخذ أكثر أموال البلدتين ويقتسمها مع ابن مهـدي، ولا يبقـى للخليفة إلا النزر القليل[7].

---

1) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص79. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص286.

(2) دقوقاء مدينة بين إربل وبغداد. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص459.

(3) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص27.

(4) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص46-47. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص288.

(5) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص480. محمـد، عـودة الـروح للخلافـة الإسلامية، ص289.

(6) دجيل اسم نهر في موضعين أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص443.

7) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص535. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص289.

وفي سنة 608 هـ /1211م أكرم الناصر الأمير مظفر الدين سنقر وجه السبع وأقطعه مدينة الكوفة[1]، وأقطع الأمير سيف الدين طغرل الناصري البندنيجين[2] واللحـف[3] والـبلاد الجبلية، وأعطى ضمان قوسان بأضعاف ما كانت مضمونة به للنقيب العلوي جلال الدين أبـي جعفر القاسم بن الزكي، صدر البلاد الفراتية[4].

---

1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص203.

(2) البندنيجين بلدة مشهورة فى طرف النهروان، وهى محال متفرقة البنيان، ونخلها متصل أكثرها باقطنايا، بها السوق والأمير والقاضى، ثم بويقيا، ثم سوق جميل، ثم فلسـت. الحمـوي، معجـم البلـدان، ج1، ص499.

(3) لحف صقع معروف من نواحي بغداد سمي بذلك لأنه في لحف جبال همذان ونهاوند وتلك النواحي وهو دونها مما يلي العراق. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص14.

4) ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص293. محمد، عودة الروح للخلافة الإسلامية، ص289-290.

الخاتمة

تميز عهد الخليفة الناصر بأنه العهد الذي استطاعت في الخلافة العباسـية أن تـتخلص نهائياً من النفوذ الأجنبي الذي بدأ مع دخول البويهيين منذ القـرن الرابـع الهجـري/العاشـر الميلادي وانتهى بخروج السلاجقة أواخر القرن السادس الهجري/ الثـاني عشـر المـيلادي، وخلال المدة التي حكم بها الناصر وهي تقرب من نصف قرن اسـتطاع الناصـر أن يسـير بالأمور الصحيح، ويبدو أنه اتبع سياسات مختلفة في الحكم وهذا ما منح الاستقرار النسبي في الحكم.

وبالرغم من ظهور الإمارات والدويلات المستقلة في بلدان الخلافة الشـرقية، إلا أنهـم كانوا دائماً يحسون بالحاجة إلى الاعتراف والمباركة من الخليفة، وهذا ما جعل العلاقات تتميز بشد وجذب وهذا ما لاحظناه في علاقة الخلافة مع كل من الخوارزميين والأتابكة والأيوبيين، ومن ناحية أخرى شهد العراق على عهد الناصر تقدّماً ملحوظاً في مجال الزراعة والصناعة، وترافق هذا النشاط مع حركة تجارية نشطت أتت بالسلع والبضائع من أقاصي الصين والهنـد ومرّت بطريق الحرير، ووصلت إلى بغداد، ثم تناقلها التجار من محطة إلـى محطـة حتـى وصلت أطراف أوروبا.

قائمة المصادر

أولاً: القرآن الكريم.

1. ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت630هـ/1232م)، الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1963 .
2. =====، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1997 .
3. =====، رسائل ابن الأثير، بيروت 1959.
4. الأزهري، محمد بن أحمد (ت370هـ/981م) تهذيب اللغة، ط1، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2001 .
5. الأيوبي، محمد بن عمر المظفر بن شاهنشاه (ت617 هـ /1221م) مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة (د.ت) .
6. ابن بطال، علي بن خلف بن عبد الملك (ت449 هـ /1057م) شرح صحيح البخاري لابن بطال، ط2، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، السعودية 2003 .
7. ابن بيدكين، ادريس بن بيدكين بن عبد الله، اللمع في الحوادث والبدع، تحقيق وتقديم صبحي لبيب، القاهرة 1986.
8. التطيلي، بنيامين بن الرابي يونة (ت569 هـ /1173م) رحلة بنيامين التطيلي، ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002 .
9. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط2، دار الكتب والوثائق القومية، مصر 2005 .

10. التنوخي، المحسن بن علي بن محمد (ت384 هـ /994م) الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجى، دار صادر، بيروت 1978 .

11. الجاحظ، عمرو بن بحر(ت255 هـ/869م) التبصر بالتجارة،

12. ابن جبير، محمد بن أحمد (ت614 هـ /1217م) رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال ، بيروت 1990 .

13. ابن الجزري، شمس الدين أبو خير محمد بن محمد (ت833 هـ /1429م) غاية النهاية في طبقات القراء، ط2، عني بنشره برجستراس، دار الكتب العلمية ، بيروت 1995.

14. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ /1200م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، ط1، دار الكتب بيروت، لبنان 1992 .

15. الحلبي، علي بن ابراهيم بن أحمد (ت1044 هـ /1635م) السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 .

16. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت626 هـ /1229م) ، معجم البلدان، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979 .

17. الحميري، محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت900 هـ /1495م) الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت 1980 .

18. ابن خرداذبه، عبيد الله بن أحمد(ت280 هـ /893م) المسالك والممالك، دار صادر، بيروت 1889 .

19. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت808 هــ /1405م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، ط1، دار الفكــر، بيروت، 1988

20. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت681 هــ /1282م) وفيات الأعيان، تحقيــق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1994.

21. الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت387 هــــ /997م) مفــاتيح العلــوم، ط2، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت 2000.

22. ابن دريد، محمد بن الحسن الأزدي (ت321 هــ /933م) جمهرة اللغــة، ط1، تحقيــق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت 1987.

23. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت748 هــ /1347م) تــاريخ الإســلام ووفيــات المشاهير والأعلام، ط2، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيــروت . 1993

24. =====، العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتــب العلمية، بيروت 2000 .

25. =====، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ط1، تحقيق: علــي محمــد البجــاوي، دار المعرفة، بيروت 1963 .

26. الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (ت599 هــــ /1203م) راحــة الصــدور وآيــة السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، الإدارة العامة للثقافة، مصر 1960.

27. ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت795 هـ /1393م) ذيل طبقات الحنابلة، ط1، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض 2005.

28. ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب (ت674 هـ /1275) الجامع المختصر في عنوان التاريخ وجامع السير، تحقيق مصطفى جواد، بغداد 1934 .

29. سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت654 هـ /1256م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط1، حيدر آباد الدكن، الهند 1952 .

30. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت771 هـ /1369م) طبقات الشافعية الكبرى ط2، تحقيق محمود الطناجي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر، الرياض 1992 .

31. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911 هـ /1505م) تاريخ الخلفاء، ط1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر 1952.

32. أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت665 هـ /1267م) الذيل على الروضتين، ط1، صححه محمد زاهد الكوثري، القاهرة 1947 .

33. ابن شداد، يوسف بن رافع (ت632 هـ /1234م) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مصر 1900 .

34. الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت548 هـ /1153م) الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت 1984.

35. الصابئ، هلال بن المحسن بن إبراهيم (ت448 هـ /1056م) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة الأعيان، الاسكندرية 1990.

36. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764 هـ /1362م) الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000 .

37. =====، نكث الهميان في نكت العميان، ط1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 2007 .

38. ابن الطقطقي، محمد بن علي بن محمد (ت709 هـ /1309م) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط1، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت 1997 .

39. ابن العبري، يوحنا بن هارون بن توما الملطي (ت685 هـ /1286م) تاريخ مختصر الدول، ط3، تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت 1992 .

40. ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت580 هـ /1185م) الإنباء في تاريخ الخلفاء، ط1، تحقيق قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة 2001 .

41. الغساني، (ت804 هـ /1402م) العسجد المسبوك.

42. الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت393 هـ /1003م) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط4، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت 1987 .

43. أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت732 هـ /1331م) تقويم البلدان، تحقيق رينود وماك كوكين ، دار صادر، بيروت 1990.

44. =====، المختصر في أخبار البشر، ط1 ، المطبعة الحسينية، القاهرة 1990.

45. ابن الفوطي، عبد الرزاق بن أحمد بن محمد (ت723 هـ /1323م) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق بشار عواد ومعروف وعماد عبد السلام رؤوف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997.

46. قاضي شهبه، تقي الدين بن احمد (ت851ه/1447م) طبقات الشافعية، ط1، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت 1986 .

47. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت682 هـ /1283م) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت د.ت .

48. القلقشندي، احمد بن علي (ت 821هـ/1418م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ط1، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر ، دمشق، 1987.

49. الكازروني، علي بن محمد البغدادي (ت697 هـ /1298م) مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة العباس، تحقيق مصطفى جواد وسالم الآلوسي، بغداد 1970 .

50. =====، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، تحقيق ونشر ميخائيل عواد وكوركيس عواد، وزارة الإرشاد العراقية، بغداد 1962.

51. الكتبي، محمد بن شاكر (764 هـ /1362م) فوات الوفيات، ط1، ج3، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1973 ص181.

52. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774 هـ /1372م) البداية والنهاية، ط1، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1988.

53. الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري (ت450 هـ /1058م) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بغداد 1989.

54. المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت380 هـ /990م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، كتبة مدبولي، القاهرة 1991.

55. المقريزي، أحمد بن علي (845 هـ /1441م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1997.

56. النسوي، محمد بن أحمد (ت639 هـ /1241م) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مصر 1953.

57. النويري، شهاب الدين أحمد (ت733 هـ /1232م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط1، تحقيق مفيد قمحية وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2004.

58. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ/1297م) مفرج الكروب في أخبار أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، الناشر د. ن، القاهرة 1980 .

59. ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر(ت 749هـ / 1349م) تاريخ ابن الوردي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1996.

قائمة المراجع

1. آدي شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت 1980.
2. الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة، الإسكندرية 1978 .
3. براون، إدوارد جوانفيل، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربية أمين الشواربي، مصر 1954.
4. الجميلي، رشيد، دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي، ط1، دار النهضة العربية، بيروت 1970
5. الحسيني، محمد صادق، عمران بغداد، مطبعة دار السلام، بغداد 1930.
6. حمارنة، صالح، وقفة عند الخليفة الناصر لدين الله (553-622ه/1158-1225م)، بحث ضمن مجموعة دراسات مهداة إلى عبد الكريم غرايبة، عمان 1988 .
7. حمدي، حافظ أحمد، الدولة الخوارزمية والمغول" غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية"، دار الفكر العربي، مصر 1949 .
8. حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط8، دار الفكر العربي، القاهرة 1968.
9. =====، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، بيروت (د.ت).
10. حنفي، عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، ط1، دار المسيرة، بيروت 1980
11. الدوري، عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السريان،، بغداد 1945.
12. الزركلي، خير الدين محمود، الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، 2002 .

13. شفق، رضا زاده، تاريخ الأدب الفارسي، نقله من الفارسية إلى العربيـــة محمـــد موســـى هنداوي، دار الفكر العربي، القاهرة 1947.

14. عبد المولى محمد أحمد، العيارون والشطار البغاددة في التاريخ العباسي، مؤسسة شـــباب الجامعة، الإسكندرية 1986 .

15. العزاوي، عباس، العراق بين احتلالين، ج1، مطبعة بغداد، بغداد 1935 .

16. العلي، صالح، التنظيمات الاجتماعية في البصرة فـــي القـــرن الأول الهجـــري، ط2، دار الطليعة، بيروت 1962.

17. القزاز، محمد صالح، الحياة السياسية في العراق في العصر العباســـي الأخيـــر، مطبعـــة القضاء، النجف، العراق 1971.

18. قلعجي، محمد رواس وآخرون، معجم لغة الفقهاء، ط2، دار النفائس للطباعـــة والنشـــر، بيروت 1988.

19. كوك، ريجارد، بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميـــل ومصـــطفى جـــواد، ط1، بغـــداد 1962.

20. ليسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير يوسف فرنسيس وكوركيس عواد، ومطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد 1954.

21. متى، عمرو، أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل، (د.ن) روما 1996 .

22. محمد، أمين صالح، النظام المالي والاقتصادي في الإسلام، ط1، مكتبة نهضـــة الشـــرق، القاهرة 1984.

23. المسري، حسين علي، تجارة العباسيين الخارجية، الكويت 1983.

24. مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج2، دار الدعوة، اسطنبول 1989

25. الولي، الشيخ طه، المدينة في الإسلام، مجلة الاجتهاد، ج6، دار الاجتهاد، بيروت 1990.

Abstract

The period of The Abbasi caliph Annaser ledin Allah which Abbasid cilapha removed the foreign control which started when the Buwayhe since fourth century/ tenth A.D، and finished with the Seljouq out in last of sixth century/ twelves A.D.

In this age which Annaser ruled its century half، he had taken different political، and in his age he founded many of Community Forces، and impossible removed this forces، he put himself the president with ALsheq Abd aljabbar، ALfutooah will me the development institution، and the princess follow it. ، this study comes to analysis this period from the caliph Annaser ledin Allah and his picture in the resources and reference، then the study leaps out to study the relationship in caliph Annaser ledin Allah period، and describes the economic life in all its fields، relying on it to the resources and reference.

Key words: caliph Annaser ledin Allah، Abbasid cilapha، ALfutooah.